

هل كانت الحروب الصليبية حرباً استعمارية قام بها الفرنجة

أم حرباً دينية دعت إليها البابوية

إعداد

د/ كريم عبد الغني محمود عبد العاطي

مدرس بقسم التاريخ (شعبة العصور الوسطى) بكلية الآداب، جامعة المنصورة

المستخلص:

اثبتت الدراسة ان الحروب الصليبية هي حروب دينية دعت اليها البابوية بهدف الاستيلاء على الاراضي المقدسة، و قدمت نموذجا جديدا للحرب، بان قامت بدمج شعيرة الحج و الثواب المتعلق بها مع الحرب المقدسة التي تقدم العفو و الغفران مع تقاليد الفروسية التي يعتز بها مقاتلو العصور الوسطى بالطقوس و الإجراءات التي يتم بها الانضمام للمشاركة في الحرب التي تمنحها الكنيسة، فتحولت الحرب إلى مؤسسة دينية تعمل في خدمة البابوية، و اتخذت من الصليب شعار فصارت تعرف باسم الحروب الصليبية. شاركت فيها امم و شعوب الغرب الاوربي الكاثوليكي، و لم تكن المشاركة مقصورة على شعب واحد او امة واحدة.

الكلمات المفتاحية:

الحرب، الفرنجة، الصليب ، المقدسة، الدينية، البابا، المسلمين.

مقدمة:

لم يعرف التاريخ ظاهرة أهم وأعظم من الحركة الصليبية . تلك الحركة التي دامت بشكلها المادى لمدة قرنين من الزمان ، ثم استمرت بعد ذلك بشكلها المعنوى لعدة قرون ، وربما إلى وقت قريب ، وكانت الحركة الصليبية عبارة عن سفارة هائلة الضخامة وشديدة الخطر ، خرجت من الغرب الأوربي إلى أراضى المسلمين فى شرق البحر المتوسط ، وتركت آثارها المدمرة منذ بدايتها على الطرق التي سلكتها وخضبتها بدماء اليهود والمسيحيين والمسلمين. وكانت الحروب الصليبية هي الثمرة المباشرة لهذه الحركة ، حيث خرج الغرب الأوربي فى كثير من الحملات، ربما أشهرها الحملات السبع التي تعارف المؤرخون على ترقيمها . ولكن الحملة الأولى هي الأشهر والأكثر دماراً وسفكا للدماء ، كما كانت أكثر الحملات نجاحا للصليبيين فقد حققت العديد من الانتصارات على القوى الإسلامية المتواجدة فى آسيا الصغرى مروراً بسوريا وفلسطين ، حيث تمكنت من دخول بيت المقدس وفرض السيطرة اللاتينية على كنيسة القيامة وقد تمثل نجاح هذه الحملة فى تكوين ثلاث إمارات لاتينية على أرض المسلمين وهي إمارة الرها وإمارة انطاكية وإمارة طرابلس فضلا عن مملكة بيت المقدس .

وقد حرص المؤرخون المسلمون والمسيحيون على تدوين التاريخ السياسى والعسكرى للصراع بين الجانبين بشكل مفصل ، كل تحركه ايدولوجيته وعقيدته . ومع ذلك لم يكن هناك اختلاف كبير بين ما دونه المسلمون والمسيحيون فيما يتعلق بالحرب والسياسة ، وبالتالي فقد

وجدت هذه الكتابات قبولاً من جانب المؤرخين المحدثين ولكن بقي الخلاف لمفهوم الحركة الصليبية والمصطلح الذي أطلق عليها .

وقد اعتبر مؤرخو العصر الوسيط أن الحروب الصليبية إما أن تكون حرباً مقدسة تهدف لتحقيق أغراض مقدسة بتوجيه من الله الذي أوكل هذه المهمة إلى البابا خليفته على الأرض وإما إنها رحلة للحج إلى الأماكن المقدسة (١) وثمة تعريف مضاد ظهر في عصر النهضة وخالق القرن الثامن عشر بأنها مجرد انفجار للتعبير عن روح التعصب التي سادت العصور الوسطى (٢). وفي العصر الحديث اعتقد البعض أن الحروب الصليبية كانت غطاء يخفي الكثير من المقاصد الدنيوية ، مثل التعطش لامتلاك الأراضي والثروة ، والرغبة في التوسع الاستعماري، والبحث عن المجد الدنيوي وما إلى ذلك . ومع ذلك فقد أظهرت بحوث مؤرخي الحروب الصليبية خاصة منذ الحرب العالمية الثانية أن العوامل الدينية كانت في الواقع هي المهيمنة (٣). بينما يرى المؤرخون الفرنسيون أن الحروب الصليبية هي المحاولات الاستعمارية الأولى التي قام بها شعبهم (٤) بينما كان الماركسيون يرون أن الحملات الصليبية كانت مشروعات استعمارية استيطانية تهدف إلى استعباد الشعوب تحت راية الصليب (٥).

ويبدو أن المؤرخين العرب الذين كتبوا عن الحروب الصليبية قد وقفوا في البداية موقفاً محايداً مثل الدكتور عزيز سوريال الذي عرض للآراء المختلفة ، ثم يقول انه يمكن تعريف الحروب الصليبية بأنها كانت صراع الأمم المسيحية في العصور الوسطى ضد كل قوى الإسلام، حيث تركز النزاع حول أورشليم وأرض الميعاد التي يدعى كل من الشرق والغرب لنفسه حق امتلاكها (٦) أما الدكتور سعيد عاشور الذي ناقش بواعث الحركة الصليبية وركز على العامل الديني ، إلا أنه وصف الحركة الصليبية بأنها حرب استعمارية ، واتخذت من الدين ستاراً دينياً للتعبير عن نفسها (٧) ومن بعدهما بفترة طويلة أدلى الدكتور قاسم عبده قاسم بأراء أكثر جرأة وأكثر تحديداً بما يعنى أنه لم تكن هناك حروب صليبية ، ولكن توجد حروب للفرنج ، على أساس أن المؤرخين المسلمين الذين عاصروا الهجوم الصليبي على المنطقة العربية قد تكلموا عن الصليبيين بعبارات مثل حركة الفرنج ، كما وصفوهم على الدوام بكلمة الفرنج ويعترف بأنهم لم يدركوا أبعاد الحركة الصليبية (٨) ولكن الجيل الثاني من المؤرخين تحدثوا

(١) عزيز سوريال عطية ، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب ، ترجمة فليب صابر يوسف (دار الثقافة) ص ٧.

(٢) عزيز سوريال ، الحروب الصليبية ، ص ٧.

(٣) Jean Flori, " Ideology and Motivations in the First crusade ", RAC, p. ١٩.

(٤) جوناثان رالي سميث ، ماهي الحروب الصليبية ، ترجمة محمد فتحي ، (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٩١) ، ص ٣ .

(٥) قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية (عالم المعرفة ، ١٩٩٠) ص ١١ .

(٦) عزيز سوريال ، الحروب الصليبية ، ص ١١ .

(٧) سعيد عبدالفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، (القاهرة ٢٠١٠) ، ص ٢٥ .

(٨) قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص ١١ ، ١٢ .

عن هذه الحركة بطريقة تدل على فهم أوضح وأشمل ، ولعل هذا ما جعلهم لا يربطون بين حركة الفرنج والمسيحية والصليب على أي نحو (١) إن مثل هذا الرأي يؤكد ما كان يحرص عليه رجال القانون الكنسى وعلماء اللاهوت بعدم ربط الكنيسة بالعنف (٢) كما يشير إلى أن رواد الكتابة التاريخية العرب فى العصر الحديث قد تأثروا فى كتاباتهم عن الحروب الصليبية ، ووقعوا فى شباك الترجمة عن الأوربيين وبدأوا يستخدمون مصطلح صليبي وحملة صليبية وحروب صليبية فى تناولهم للظاهرة التى درج أسلافهم على معالجتها تحت مصطلحات الفرنج وحركة الفرنج ، ويرى أن وجه الخطورة فى استخدام مصطلح حروب صليبية إنما يوحى بأن الحركة كانت حركة دينية ترتبط بالصليب رمز المسيحية ، ولاتضعها فى إطارها الصحيح باعتبارها مغامرة استيطانية متعصبة (٣) . كما يصف مصطلح الحروب الصليبية بقوله " ربما لم يعرف التاريخ الإنسانى ظاهرة تاريخية حملت مصطلحا مناقضاً لحقيقتها مثل الحركة الصليبية (٤) .

أما المصطلح فقد تعددت الآراء فى نشأته وتاريخ ظهوره، لأن عدم قدرة النخبة الفكرية أو مؤرخى اللاتين فى القرن الثانى عشر على الاتفاق فيما بينهم أو حتى اقتراح مصطلح لغوى يعبر عن الفعاليات التى أطلق عليها فيما بعد اسم الحملة الصليبية ، قد أدى إلى ظهور العديد من المصطلحات باللهجات العامية المتعددة فى القرن الثالث عشر مثل كلمة صليبي Croiseri فى كل من إنجلترا وفرنسا ، ومسميات أخرى مثل رحلة الحج ، والحرب المقدسة ، وحملة الصليب ، ومشروع يسوع وغير ذلك من التعبيرات والمصطلحات (٥) ويقال أنه فى

كان السلمى الذى عاصر الحملة الأولى يدرك أن المسيحيين كانوا يحاربون حرباً مقدسة ضد المسلمين بل أنه استخدم الكلمة العربية جهاد لوصف أنشطتهم.

Naili Christle and De Borah Gerish " Paralled preachings Urban II and Al-Sulami" Msq, vol. ١٥, No.٢,(September, ٢٠٠٣), p. ١٤١

ويعلق باحثون آخرون على آراء السلمى بقولهم ، ولعل فى هذا الكلام دليلاً قاطعاً على فهم المسلمين منذ اللحظة الأولى لطبيعة الحرب الفرنجية الصليبية وأنها حملة منظمة من أوربا تجاه العالم الإسلامى بدأت بسيطرتهم على صقلية ثم بالهجوم على الأندلس والسيطرة على أجزاء منها ، ثم توجهوا للسيطرة على القدس.

عصام مصطفى عقلة ، يوسف أحمد بنى ياسين " تاريخ الجهاد للسلمى (ت ٥٠٠هـ / ١١٠٦م) دراسة فى مصادره ومنهجه ورؤيته للصراع الفرنجى الصليبي " دراسات العلوم الانسانية والاجتماعية ، المجلد ٤١ ، العدد ٣ ، (٢٠١٤) ص ٩٣٦ .

(١) قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص ١٢ .

(٢) رايلي سميث ، ماهى الحروب الصليبية ، ص ٤ .

(٣) قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص ١٢ ، ١٣ .

(٤) قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص ٧ .

(٥) رايلي سميث ، ماهى الحروب الصليبية ، ص ٤ ، توماس ماستنك، السلام الصليبي ، ترجمة بشير السباعى، (القاهرة ٢٠٠٩) ، ص ٩٣؛ قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص ٩ ؛ هانس ابرهارد ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة نجاح صلاح الدين القابسى (مجمع الفاتح للجامعات

بداية الحروب الصليبية كانت تستخدم *Perginatio* وهي المصطلح الذي كان يدل على سفرة الحج^(١)، ثم صار المصطلح *Peregrinus* والفعل *Peregrinari* يعنى الصليبي ، تماما مثل كلمة حاج *Pilgrim* وتصف أنشطته^(٢) وهكذا صارت كلمة حاج مرادفا لكلمة صليبي طوال القرن الثاني عشر على الأقل^(٣) وفي أواخر القرن الثاني عشر صارت كلمة صليبي *Cruceignati* تستخدم للدلالة على المشاركين في رحلة صليبية^(٤) وصار هذا الرأي مقبولاً من معظم المؤرخين. ولكن يوجد رأى آخر لم يلتفت إليه كثيراً يقول بأن البابا أوربان الثاني أقام احتفالاً بمنح الصليبان لهؤلاء الذين أقسموا للقيام بالرحلة إلى بيت المقدس ، ومن ثم صاروا مهورين بالصليب أو موسومين بالصليب *Crucesignati* ، وبدأت اللهجات المحلية تصف تلك الحروب في مصطلحات متماثلة مثل *Crozuda* أو *Crcesignati* كان هو المصطلح الأسبق في الظهور لتعريف الصليبيين^(٥) ويدعم هذا الرأى ما قام به أحد الدارسين في دراسته عن المؤرخ اكيهارد الذي كتب تاريخاً موجزاً عن الحملة الصليبية الأولى وحملة سنة ١١٠١، بأن المؤرخ اكيهارد قد استخدم كلمة *Crucesignati* عندما كان يشير إلى أى تجمع كبير من الناس الذين يسعون للانضمام إلى الحملة الصليبية بعد مجمع كليرمونت^(٦) وتبين الكلمة اللاتينية *Crucesignati* أهمية حمل الصليب بالنسبة للصليبيين ، والكلمة ناتجة عن اندماج كلمتى *Crux* التى تعنى علامة الصليب وكلمة *Signo* وتعنى رمز أو علامة . وعند دمجها صارت الكلمة تعنى الشخص الموسوم بالصليب أو المهور بالصليب^(٧) . كما استخدم أيضا مصطلح جيش حملة الصليب *The Crossbearing army*^(٨) أو الرجال الذين يحملون علامة الصليب^(٩) . وهذا يعنى أن المصطلح الدال والمعبر عن الحروب الصليبية قد ظهر منذ بداية القرن الثاني عشر ، ولكنه لم ينتشر إلا فى أواخره. أما الصليبيون فكانوا يشيرون إلى

(١٩٩٠) ، ص ٣٢؛ يوشع براور الاستيطان الصليبي في فلسطين : مملكة بيت المقدس ، ترجمة عبدالحافظ

البنيا ، (القاهرة ، ٢٠٠١) ص ١٣ .

(١) ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٣٢ .

(٢) Walter Proges " The Clergy, the poor and the Nun-conibatant on the First Crusade" SPEC, vol ٢١, No.١ (Jan, ١٩٤٦), p. ١ .

(٣) قاسم عبده قاسم ، الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية ، دراسة عن الحملة الأولى ١٠٩٥-١٠٩٩م ، (القاهرة، ١٩٩٩) ص ٣٧ .

(٤) C.Maier " Crusades"NEC, Vol.٤, pp. ٤٠٧,٤٠٨ .

رايلي سميث ، ماهى الحروب الصليبية ، ص ٥ .

(٥) Cristopher Tyerman, Fighting for Christendom, Holywar and the Crusade, (Oxford ٢٠٠٤) pp. ٢٨, ٢٩ .

(٦) Matthew la Barget King, A Translation, Commentary and Essay concerning The Hierosolymita by Ekkehard of Aura, PHD, University of Washington (٢٠١١) , pp. ٢٣, ٢٤ .

(٧) La Barg King, The Hierosolymita by Ekkehard of Aura, pp. ٢٩.٣٠ .

(٨) La Barg King, The Hierosolymita by Ekkehard of Aura, p. ٤٣ .

(٩) La Barg King, The Hierosolymita by Ekkehard of Aura, p. ٤٦ .

انفسهم فى رسائلهم بأنهم جيش الرب ، وفرسان المسيح ، وجيش المسيح ، وجيش المؤمنون بالمسيح ، والجيش المسيحى وجيش الكاثوليك (١) .

ومن ثم نحن أمام عدة إشكاليات ، هل كانت الحروب الصليبية حربا للفرنجة ، وهل مصطلح الحروب الصليبية يعبر عن هذه الحرب ، وهل كانت الحروب الصليبية حرباً استعمارية أم أنها كانت حربا دينية ، ولتوضيح ذلك يجب إعادة دراسة خطاب البابا أوربان الثانى (١٠٨٨-١٠٩٩) Urban II فى مجمع كليرمونت ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥ Clermont ، وتحديد عناصره ، وتحليل هذه العناصر لمحاولة وضع تصور صحيح عن الأسباب والدوافع التى أدت إلى الاستجابة العريضة لدعوة البابا، ورسم صورة عن مكونات أو هيكل هذه الحرب للوصول إلى معرفة ماهيتها.

وبقراءة أهم المصادر المعاصرة التى كتبت عن خطاب البابا اوربان الثانى فى كليرمونت وهى ماكتبه فوشيه الشارترى وروبرت الراهب وبلدريك الدولى وجيوبيرت النوجنتى والمؤلف المجهول واكيهارد الأورياوى وبطرس توديبود (٢) يتبين منها أن سبب الدعوة هو تقديم العون للمسيحيين الشرقيين واستعادة الأراضى المقدسة ميراث الأجداد من قبضة المسلمين وان صيحة الحرب هى هذه إرادة الله ، وعلى كل من يرغب فى المشاركة فى رحلة الحج إلى بيت المقدس أن يؤدى قسما بذلك ، وأن يضع علامة الصليب على ملابسه ، وفى مقابل ذلك تم الوعد بالحصول على الغفران ووضع أسرة الصليبي وممتلكاته تحت رعاية الكنيسة وحمائيتها .

وكانت اللغة التى استخدمها البابا اوربان الثانى فى خطابه تبين أنه كان على علم وادراك بأنه يقدم مشروعاً جديداً ، حتى يكون الصليبيون كيانا بارزاً يختلف عن معاصريهم (٣) لأن الحرب التى دعا إليها كات تختلف عن أية حروب سابقة ، والمشاركون فيها يختلفون عن أى مقاتلين عرفتهم اوربا ، والحجاج يختلفون تماما عن الحجاج الذين عهدناهم فى رحلات الحج التقليدية إلى الأماكن المقدسة . لقد كانت حربا من أجل المسيح (٤) ومن ثم فإن ماحدث فى فى كليرمونت لم يكن وليد الصدفة ، أو حدث فجأة دون ترتيب وإعداد . فإذا اعتقدنا ذلك فإننا نقلل من شأن البابا اوربان ونبخسه ذكاءه ومهارته ، لأن ماحدث كان شيئا هائلا لا بد أن يكون

(١) Alec C. Mulinder, The Crusade of ١٠١١, with particular Reference to Military History, PHD University of Wales, (١٩٩٦), p. ١٩.

(٢) Robert The Monk, The Historia Iherosolmitana, edited by D.Kempt and M.G. Bull, Bull, (The Boydell press, ٢٠١٣) pp. ٥-٧, Ekkehard of Aura, Hierosolymita, p. ٤٣; The Deeds of the Franks and other Jerusalem-Bound pilgrims, edited and translated by Nirmal Dass, (United kingdom, ٢٠١١) pp. ٢٥, ٢٦; Louise and Jonathan Riley Smith, The crusades Idea and Reality, ١٠٩٥-١٢٧٤, (London, ١٩٨١) pp. ٤١-٥٣; Dana Carleton Munro "The speech of pope Urban II at Clermont, ١٠٩٥" AHR, Vol. ١١, No. ٢, (Jan, ١٩٠٦) pp. ٢٥٦-٢٤٢.

فوشية الشارترى ، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، (الكويت ١٩٩٣) ص ٩٣ ، بطرس نورديبود ، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس ، ترجمة حسين محمد عطية ، (الاسكندرية ١٩٩٩) ص ١١ ، ص ٦٢ .

(٣) Janathan Riley Smith, The first crusaders (١٠٩٥-١١٣١) (Cambridge, ٢٠٠٠), p. ١١.

(٤) Janathan Riley Smith, "The Crusading Movement and Historians", OHC, p. ٩.

قاسم عبده قاسم ، الخلفية الايديولوجية ، ص ٢٧ .

قد تم الإعداد والترتيب له بشكل جيد ، ودراسة عقلية المقاتلين الأوربيين وميولهم ، وأن يضع الإغراءات والمزايا التي تدفعهم على المشاركة في حربه ، فقد جعل أعمال القتال في الحرب الصليبية تستحق نفس تقدير الصلاة (١) . ولذلك فإنه من المؤكد أنه قضى فترة في الإعداد لمشروعه وتجول في جنوب ووسط فرنسا لدراسة المشروع مع رجال الدين وبعض الأمراء من بينهم أدهيمار Adhmar أسقف لوبوى Le Puy وريموند السانجيلي كونت تولوز الذي كان يريده أن يكون قائدا للحملة (٢) ومن ثم فإنه لم يترك شيئا للصدفة أو المفاجأة أو يؤثر سلبا على مشروعه ، مما دعا أحد المؤرخين إلى القول أن ما تم في كليرمونت قد تم مناقشته في وقت سابق في مجمع يضم ستة وثلاثين أسقفاً ، انعقد في وقت سابق في سنة ١٠٩٥ في مدينة اوتوم Autum كما يقال إن أيمن القسم الأولى التي أقسمها الراجيون في الذهاب إلى القدس قد تم صياغتها في هذا المجلس (٣) وكان البابا يعرف أن المساعدة الفعالة للمسيحيين في الشرق لن يقوم بها إلا الفئات المقاتلة في المجتمع ولذلك ركز دعوته لإثارة حماسة الفئة القادرة على حمل السلاح ، وفي نفس الوقت سعى لإثناء المسنين والعجزة والنساء والقساوسة والرهبان عن أن يقسموا القسم الصليبي (٤) . انتهى خطاب البابا اوربان الثاني في كليرمونت بعد أن أعلن عن مشروعه الكبير بتوجيه حملة مسلحة للحج إلى الأراضي المقدسة وتخليصها. وهذا هو الركن الأول الذي يجب توافره عند الإعلان عن أية حملة صليبية ، أى أن الإعلان عن أية حملة صليبية لا يتم إلا عن طريق البابا ، وفور الإنتهاء من الخطاب أعلن عدد كبير من الحاضرين عزمهم على الإنضمام إلى الرحلة المتوجهة إلى بيت المقدس ، ويقول وليم الصورى معلقاً على الاستجابة الكبيرة للمشاركة في الحرب الصليبية قائلاً ، ومن الحق أن نقول أنه تحققت كلمة السيد إذ يقول ماجئت لالقي سلاماً بل سيفاً (٥) ، ولكن النية وحدها لم تكن كافية ووفقاً لتعليمات

(١) Riley Smith, The First Crusaders, p. ٤٨.

(٢) Riley Smith, The Crusading Movement and Historians, p. ٢, John France, The Crusade and the Expantion of Catholic Christendom, ١٠٠٠-١٧١٤, (New York ٢٠٠٦), pp. ٢٤,٥١.

ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٦٧ .

(٣) Riley Smith, The Crusading Movement, p. ٢.

بعد مجمع بيكانزا في مارس ١٠٩٥ ، توجه البابا إلى فرنسا ودخل بروفانس في أقصى الجنوب الشرقي ، وفي أواخر صيف ١٠٩٥ قام بزيارة فالنس Valence ورومان Romans قبل أن يتوجه إلى لوبوى ، ثم عاد إلى الجنوب عن طريق شيراك Chirac وميليو Millau ، ثم إلى نيمس Nimes وسان جيل وتراسكون Taracan قبل أن يسافر صاعداً إلى وادي الرون عبر أفينون إلى ليون ، ووصل إلى ماكون في ١٧ أكتوبر وفي كلونى من ١٨-٢٥ ، وفي أوتون Autun في نهاية الشهر ، ووصل إلى كليرمونت في ١٤ نوفمبر . وأن هذه الجولة كانت الأساس في الإعداد للدعوة إلى مشروعه.

Riley Smith, The First Crusaders, p. ٥٤.

(٤) Robert the Monk, The Historia Iherosolmitana, p. ٧; Jonathan Riley Smith, "The state of Mind of Crusaders," OHC, p. ٦٨; Symon Lloyd " The Crusading Movement " OHC, p. ٤٧. Michael R. Evans " Commutation of Crusade vow " FCJER, p. ٢٢٠.

(٥) وليم الصورى ، الحروب الصليبية ج ١ ، ترجمة حسن جبشى (القاهرة ١٩٩١) ، ص ١٠٦ - يقول المسيح

"لا تظنوا أنى جئت لأرسى سلاماً على الأرض . ماجئت لأرسى سلاماً ، بل سيفاً " .

إنجيل متى ، ١٠-٣٤ .

البابا يجب عليهم اخذ تعهد أو نذر بالذهاب إلى الأرض المقدسة (١) وكان هذا العهد هو الركن الثاني في هيكل الحرب الصليبية .

قام البابا أوربان بوضع هذا النذر موضع التنفيذ لأول مرة عندما طلب من مستمعيه في كليرمونت بأن يأخذ كل فرد على نفسه عهداً أمام الرب بالذهاب إلى القبر المقدس وبالقيام بالرحلة في صفوف الحملة المتوجهة إلى الأرض المقدسة . وكان هذا النذر الصليبي مقدساً وخصوصاً واختيارياً ويتم تقديمه بحرية ومهابة في حضور أحد القساوسة ويتم في العلن ، ويستتبع ذلك سلسلة من الالتزامات ويتيح عدداً من الامتيازات ، ويوفر للصليبي وضعية قانونية جديدة (٢) وكان هناك اعتقاد شائع بان عدم الوفاء بالنذر قبل موت المرء ، يمكن أن يحرم المرء من فرصة الخلاص (٣) .

ان فكرة الحج المسلح لتحرير القدس كانت شيئاً جديداً ومع ذلك كان يتم النظر إلى الحج والحرب على أنهما نشاطان متباينان للغاية ولا يمكن التوفيق بينهما . وكان الحجاج حتى اواخر نوفمبر ١٠٩٥ ممنوعين من حمل السلاح ، أو قرروا عدم تسليح أنفسهم اعترافاً بوضعهم ككثائين أما الصليبيون فإنهم كانوا يرغبون في استبدال الرحلة بكل أنواع غفران الذنوب ، بأن يعترفوا بالندم والتوبة ، وأن يكافحوا من أجل القدس في معركة المسيحية (٤) وكان الأمراء والفرسان لا يستطيعون أداء الكفارة في الداخل عما ارتكبه من ذنوب وجرائم لأنهم كانوا يتضايقون أن يتم رؤيتهم بدون سلاح . وبمعنى آخر فإن الكفارة التي جلبها كبار أمراء الغرب على أنفسهم كانت تبدو من الشدة أن يخرجوا للحج في الخارج . وهذا الإرث كان يعنى السفر بدون سلاح (٥) ولهذا السبب كان اوربان الثاني يربط بين ممارستين متباينتين ، وبعمله ذلك

(١) Robert the Monk, The Histaria Iherosolmitana, p. ٧; Jennifer Ann price, Cruce Signatus : The form and Substance of The Crusading vow, ١٠٩٥-١٢١٦, PHD University of Washington (٢٠٠٥) p. ٣٧.

ميشيل بالار ، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن الحادى عشر إلى القرن الرابع عشر ، ترجمة بشير السباعى (القاهرة ٢٠٠٢) ص ٥٥ ، رايلي سميث ، ماهى الحروب الصليبية ، ص ٥٦ .

(٢) Corliss K.Slack, Historical Dictionary of The Crusades,(Oxford ٢٠٠٣) pp.٥٦,٧٧; C.J.Tyerman, "were There Ay Crusades in the Twelfth Centyry" HER, vol. ١١٠, No.٤٣٧ (Jun ,١٩٩٥) p. ٥٦٩.

بالار ، الحملات الصليبية ، ص ٥٥ ، رايلي سميث ، ماهى الحروب الصليبية ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

كان هذا النوع من التعهدات المعروف بالنذر إجراء راسخاً ومألوفاً في الفترة التي سبقت الحملة الصليبية الأولى ، ويعلق كل من العهد الجديد والعهد القديم على تقديم وعودا طوعية ورضينه إلى الله ، ولكن عندما يتم التعهد بالنذر فإنه يجب التعامل معه بجدية . يقول الكتاب المقدس " إذا نذرتم نذرا للرب فلا تماطلوا في الوفاء به ، لأن إلهكم يطالبكم به ، ويحسب ذلك عليكم ذنباً . وإن لم تنذروا لا تكون عليكم خطيئة . أما ما تعهدت به شفتاك فذاك احفظه وأوفه ، كما نذرت طواعية للرب إلهك وكما تعهد به فمك .

العهد القديم ، سفر التثنية ، ٢٣ : ٢١-٢٣ .

(٣) Price, The Crusading Vow, p. ٢٠.

(٤) Jonathan Riley.Smith,"An Army on Pilgrimage " JGO, p.١٠٩; Price, The Crusading Vow, p. ١٥.

(٥) Price, The Crusading Vow, p. ١٥.

أنشأ شكلاً جديداً من أشكال حج التوبة ، ونوعاً جديداً من الحرب المقدسة ، وبذلك أنشأ الحرب الصليبية (١) وكان الدمج بين الحج والحرب في مشروع واحد سبباً رئيساً في الإقبال الكبير من الفرسان والمقاتلين على الاشتراك في هذه الحرب يقول جيوبرت النوجنتي ان الله قد هيا حروباً مقدسة في أيامنا حتى يجد نظام الفرسان ومن على شاكلتهم طريقاً جديداً لتحقيق الخلاص، وبذلك فإنهم ليسوا مضطرين للتخلي عن شئونهم الدنيوية بالانخراط في الحياة الديرية أو أية وظيفة دينية أخرى كما هي العادة . ولكن يمكنهم إدراك الخلاص بفضل الله وهم يمارسون أعمالهم بالحرية واللباس الذي اعتادوا عليه (٢) . وهكذا تتكون الحرب الصليبية من جزئين متساويين ، هما صفة أو شخصية الحج المسلح وشخصية الحرب المقدسة .

وإلى الحد الذي نفهم فيه الطبيعة المزدوجة للحملة التي نادى بها أوربان في كليرمونت ، وربما تبدو أكثر وضوحاً في شكل وجوه العهد الذي قطعه أولئك الذين قرروا القيام بهذا الحج المقدس نظراً لأن الوعد الذي قطعه الذين قرروا تلبية دعوة البابا كان مشابهاً في شكله للعهود التي قطعها حجاج القرن الحادي عشر قبل مغادرتهم ويلتزمون أيضاً بالمفاهيم المعاصرة للوفاء بالنذر (٣) . ويرى البعض أنه كان هناك فرق بين نذر الحاج ونذر الصليبي، فعلى الرغم من أن بعض الحجاج قد عززوا نيتهم في السفر إلى ضريح معين بنذر قد نذروه ، إلا أن النذر نفسه لم يكن ضرورياً في رحلة الحج التقليدي ، أو كان شرطاً مسبقاً للحج ، وعلى العكس من ذلك فإن النذر كان ضرورياً أو شرطاً أساسياً مطلوباً للمشاركة في الحملة الصليبية (٤).

لم تكن هناك عقيدة واضحة المعالم للنذر والتزاماته في القانون الكنسي الغربي في الوقت الذي بشر فيه أوربان الثاني بالحملة الصليبية . ويعتقد أن الوعود الرسمية أو العامة كانت قابلة للتنفيذ قانوناً. وكان من المتوقع ان تفرض الكنيسة عقوبات على الناشرين الذين لم يفعلوا ما وعدوا به (٥).

وقد حدد القرار التاسع في مجمع كليرمونت الوضعية القانونية للحاج الصليبي بأنه إذا انطلق في الطريق إلى القدس من أجل تحرير كنيسة الله وليس سعياً للحصول على المجد أو المال، فإن هذه الرحلة تحل محل جميع عقوبات التكفير عن الذنوب الأخرى الموصوفة للتكفير

كانت ملابس الحاج التقليدي تتكون من ثوب طويل خشن، بني اللون يميل إلى الأصفر أو الاحمرار، ذو أكمام واسعة مغطاة بالصلبان ، وحزام من الجلد أو إزار حول الكتفين ، وقبعة دائرية كبيرة مزينة بصور العذراء والقديسين ومسبحة من الخرز الكبير معلقه حول العنق أو الذراع وعصا طويلة للمشي مثل العصا المعقوفة وحقيبة وإناء .

Sideny Heat, Pilgrim Life in the Middle Ages (London ١٩١١), p. ١٢١.

(١) Price, The Crusading Vow, p. ١٥, Riley-Smith, An Army on Pilgrimage, p. ١١١.

(٢) Louise and Jonathan, The Crusades, Idea and Reality, pp. ٥٥, ٥٦.

(٣) Price, The Crusading Vow, pp. ١٥, ١٦.

وهذا يعنى أنه في مقابل قتال أعداء الله على الأرض وإتمام الحج إلى بيت المقدس يتلقى الفرد جائزة روحية غير مسبوقة .

Gonathan Philips, The Crusades, ١٠٩٥-١١٩٧, (Longman ٢٠٠٢), p. ١٥.

(٤) Price, The Crusading Vow, p. ١٦.

(٥) Price, The Crusading Vow, pp. ٢٧, ٢٨.

عن الخطايا (١) . ومعنى هذا أن مزايا الحج الصليبي كانت تضعها السلطات الدينية في السابق للخطيئ التائب في مقابل الحج التقليدي ، أي أن الحج إلى القدس سواء كان الحاج مسلحاً أو غير مسلح كان يكفير عن أبشع الخطايا (٢) وهذا يعني أن الحج المسلح في الحملة الصليبية كان يتم فهمه على أن مجرد المشاركة في الحملة كانت تعتبر كافية للتكفير عن الذنوب دون أن يقوم بممارسة تقاليد وطقوس الحج التقليدية أو أداء الكفارة المخصصة لذلك ، وربما يكون ذلك بسبب التكلفة الباهظة التي يتحملها المقاتل الصليبي والخطر الذي يتعرض له . ولذلك فإنه يتبادر إلى الذهن بأن الصليبي عندما يقاتل من أجل استرداد القدس والدفاع عن اخوانه المسيحيين فإنه يكون له ثواب آخر أكثر من ذلك والذي يتمتع به الحاج التقليدي(٣).

ومن المؤكد أن التوبة والتكفير عن الذنب كانتا السبب الرئيسي لرحيل الكثير من الفرسان إلى القدس ، ولكن لم يكن ذلك بالضرورة هو الدافع الوحيد للفرسان ، وربما لأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم مقاتلين في سبيل العقيدة ، فرسان في جيش المسيح ، يضعون شجاعتهم وسيوفهم في خدمة ربهم حبا وطاعة ، ولكنهم كانوا أيضا يتوقعون الحصول على مكافآت روحية أخرى في مقابل خدمتهم ، مثلما يحصل الفرسان على مكافآتهم من سيدهم الدنيوي (٤).

وهكذا قصد الصليبيون أن تكون الحرب جزءاً أصيلاً من تجربتهم في التكفير عن ذنوبهم ، وقد وصفت رسمياً بأنها تعبير عن حبهم لإخوانهم وأخواتهم المسيحيين وحبهم لربهم ، وكان الالتزام بالحملة الصليبية يعد قرباناً حقيقياً، أي تضحية بالنفس في سبيل الرب ، وهكذا فقد كانت الحملة الصليبية نشاطاً دينياً بقدر ما كانت نشاطاً عسكرياً ، وتظهر مفهوم الحرب الدينية بشكل من أشكال الخدمة العسكرية يمكن مقارنتها بالعبادة(٥) . وهكذا فقد أدرك الفرسان بالفعل أهمية مهنتهم ، ولم يعودوا مقتنعين تماماً بالحاجة إلى أن يصبحوا رهباناً من أجل الوصول إلى الخلاص الأبدي ، بل كانوا يتطلعون إلى مكافأة السماء مع بقائهم في مهنتهم (٦).

(١) Jean Flori, Ideology and Motivations, p. ٢٠

يقول البابا اوربان الثاني في خطاب لأتباعه في بلونيا ، يجب أن تعلموا أنه إذا ذهب أي رجال منكم إلى هناك لا لرغبة في المكاسب الدنيوية ، وإنما فقط لخلاص ارواحهم لتحرير الكنيسة فإننا بمقتضى سلطاتنا نغفيم من التكفير المفروض عليهم لقاء خطاياهم التي اعترفوا بها اعترافاً كاملاً.

Edward Peters, edit, The First Crusade, The Chronicle of fucher of Chartres and Other Materials, (Pennsylvania ١٩٧١), ٤٤; Louise and Jonathan, The Crusades Idea and Reality, p. ٣٩.

قاسم عبده قاسم ، الحملة الصليبية الأولى ، نصوص ووثائق ، (القاهرة ٢٠٠١) ص ٩١ .

(٢) Jean Flori, Ideology and Motivations, pp. ٢٠, ٢١.

(٣) Jean Flori, Ideology and Motivations, p. ٢١.

جاء في رسالة البابا اوربان إلى أتباعه في بلونيا أنه يتم التكفير عن خطايا الفرسان لأنهم خاطروا بأموالهم وحياتهم في حب الرب وحب جيرانهم.

Louise and Jonathan, The Crusades Idea and Reality, p. ٣٩, Peters, The First Crusade, p. ٤٤.

(٤) Jean Flori, Ideology and Motivations, pp. ٢١, ٢٢.

(٥) Riley –Smith, The state of Mind, pp. ٧٧, ٧٨.

(٦) Jean Flori, Ideology and Motivations, p. ٢١.

ولذلك يتساءل البعض ، هل خلقت الحروب الصليبية أنماطا جديدة من الفضيلة تستحق الإعجاب، قد يكون البابا أوربان الثاني لديه بعض الآمال في ذلك لأنه قد تم تفسير إنشائه للحملة الصليبية لتكون بديلاً ، وهو ما يعيدنا إلى ما ذكره جيورجيو النوجنتى بأنها كانت بديلاً عن الانخراط في سلك الرهبنة ، لكن فكرة المحارب المقدس لم تكن جديدة ، وسرعان ما أصبح الطريق إلى القدس استكمالاً لمهنة الفروسية وليس كفارة لها .(١).

كان ارتباط الحملة الصليبية التي دعا إليها أوربان الثاني بالصليب، الذي منحها المصطلح المعروف بالحروب الصليبية إرتباطاً صائياً لإضفاء الطابع الديني على الحملة العسكرية مثلما قام بربطها بشعيرة الحج إلى الأرض المقدسة . ووفقاً لأقوال المعاصرين أن اختيار أوربان للصليب كان إلهاماً ، فليس هناك شعار أفضل لجند الله من علامة آلام الرب(٢). وإذا كان المؤرخون الذين سجلوا خطاب أوربان في كليرمونت لم يشرحوا سبب رغبة أوربان في ان يرتدى الجنود في جيش الرب صليبا، فقد انفرد جيورجيو النوجنتى بنص يقول فيه أن البابا وهو يخاطب الحاضرين في كليرمونت قال " فما هو الثمن الروحي الذي يمكنكم رفضه في سبيل رحلة حج لانقاذ الصليب والدم والضريح " (٣) . وهذا يعني أن انقاذ الصليب كان أحد أهداف الحملة وسبباً من أسباب الدعوة إلى قيامها واقترن إنقاذه بإنقاذ الضريح المقدس.

ويكاد يتفق المؤرخان بطرس تيوديبود و المؤرخ المجهول كاتب أعمال الفرنجة في وصفهما للحظة التي استجاب فيها المستمعون لدعوة البابا. ورأى كل منهما أن هذه اللحظة هي التي طالما دعا إليها المسيح وحددها في الإنجيل (٤) بقوله " إذا أراد أحد أن يسير ورائي فلينكر فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني " (٥) . ومن ثم فإن من يحمل صليبه ويتوجه إلى الأرض المقدسة فإنه ينفذ الأمر الذي أمر به الإنجيل.

وفي هذا السياق يقول كل من روبرت الراهب (٦) وبلدريك الدويلي (٧) متمثلان بقول المسيح " ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني " (٨). وهو الأمر الذي دفع فوشيه إلى القول. وقد كان من اللائق لجنود الرب الذين يستعدون للقتال في سبيل شرفه أن يتميزوا ويحتموا

(١) Tyerman, Were there Any Crusaders, p. ٥٧٤.

(٢) Price, The Crusading Vow, p. ٤١.

(٣) Louise and Jonathan, The Crusades Idea and Reality, p. ٤٦.; Peters, The First Crusade, p. ٣٤.

قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبية الأولى ، نصوص ووثائق ، ص ٨٢.

(٤) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمه حسن جيشي ، (المملكة العربية السعودية ١٩٥٨) ص ١٧؛ تيوديبود، الرحلة إلى بيت المقدس ، ص ٦١.

(٥) انجيل متى ، ١٦ : ٢٤ ؛ انجيل مرقس ، ٨ : ٣٤ ؛ انجيل لوقا ، ٩ : ٢٣.

(٦) Robert The Monk, The Historia Iherosolmitana, p. ٧.

(٧) Louise and Jonathan, The Crusades Idea and Reality, p. ٥٣.

(٨) انجيل متى ، ١٠ : ٢٨.

برمز انتصاره^(١) ومن ثم فإن كان يسوع قد بذل حياته على الصليب لإنقاذ شعبه ، فإنه في المقابل يطلب منهم أن يحملوا صليبية لتحرير قبره وتخليص شعبه من الظلم^(٢).

ويرى أحد الكتاب أن اختيار الصليب كان تعبيراً عن فكرة قوية ظهرت في الكتابات الدينية المعاصرة ، وهي أهمية الصليب للمسيحيين ، فقد أشار البابا اوربان الثاني في سنة ١٠٩٣ إلى المسلمين على أنهم أعداء الصليب^(٣) وهذا كناية عن الديانة المسيحية .

لم ينظر المسيحيون في الغرب الأوربي إلى الصليب بالنظرة السلبية على أنه أداة للموت والتعذيب، ولكنهم كانوا يرون بأن للصليب دور في خطة الخلاص الإلهي ، لأن المسيح من خلال آلامه كان قد حقق الظفر والنصر على الموت والخطيئة . ولهذا فإن الصليب وسيلة المعاناة والآلام قد صار مصدراً للحياة ، وصار يبدو كالعرش والراية للإله المجيد^(٤) . وبما صار للصليب من قدسية وأهمية في الطقوس الدينية ، فقد بدأت ممارسة عبادة الصليب في الطقوس منذ القرن الرابع الميلادي . أما التقدم الحقيقي لعبادة الصليب في الغرب كان في القرن الحادي عشر^(٥) مما يؤكد على الأهمية الدينية والرمزية للصليب . وتغلغل الصليب إلى جميع مناحي الحياة العامة تقريبا لأن الصليب أو التذكير بالآلام مثل المفتاح الروحي الذي يفتح كل مناحي الحياة الدينية ، وأن علامة الصليب تحميهم من الخطيئة والغواية^(٦) . وأصبح أسلوب المسيح في الفداء ، أي الصليب نموذجا للحياة الصالحة^(٧) . كذلك يوصى أحد الكتاب أن يضعوا يضعوا المسيح في القلب وعلامة الصليب على الجبهة^(٨) . كما تم وصف الصليب بأنه أساس التأديب الرهباني وإماته الجسد وعلامة المسيح على الجسد . صليب المسيح ، المطبوع على جبين كل مسيحي وقلبه^(٩).

وقد أظهر مجمع كليرمونت مدى أهمية الصليب في نشر الأمان زمن الحملة الصليبية الأولى فقرر المجمع أنه إذا احتذى أي فرد بصليب منصوب على الطريق عندما كان يطارده أعدائه فإنه يكون في مامن كما لو كان في داخل الكنيسة^(١٠) مما دعا أحد الكتاب أن يعلن اعتزازه بالصليب بقوله نحن نحمل الصليب على جباهنا ، ولكن الأكثر أهمية لخلاصنا أن يكون

(١) فوشية ، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ، ص ٩٥ .

(٢) Jean Flori, Ideology and Motivations, p. ٢٣.

(٣) جوناثان ريلي سميث ، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحرب الصليبية ، ترجمة محمد فتحى الشاعر ، (القاهرة ١٩٩٣) ص ٣٠ .

(٤) C.Meinbery/Eds, "Cross", NCE, Vol. ٤, p. ٣٨٢.

(٥) Meinbery/Eds, Cross, p. ٣٨٢; Giles constable Crusaders and Crusading in the Twelfth Century, (New York ٢٠١٦) p. ٤٨.

(٦) Christopher Matthew Phillips, O Magnum crucis Misterium: Devotion to the Cross Cross and the Imitation of The Crucified Christ in the Hight Middle Ages C١٠٥٠- C١٢١٥, PHD, Saint Louis Univesity (٢٠٠٦), p. ١١٩.

(٧) C.Matthew Phillips " Crucified With Christ : The Imitation of The Crucified Christ Christ and Crusading Spiritulty " CMWC, p. ٢٨.

(٨) Constable, Crusaders and Crusading, p. ٤٧.

(٩) Phillips, Crucified with Christ, p. ٣٠.

(١٠) Constable, Crusaders and Crusading, p. ٥٠.

الصليب في قلوبنا (١) . وقام الوعاظ والدعاة بتصوير الصليب كوسيلة لقهـر الشيطان والجسد والعالم بإلهام من الروح القدس (٢) . وأن صليب الصليبيين يدل على نور الله الذى جعل محبة المسيح نورا جذابا (٣) . كما أضفوا شكلاً من القدسية على الصليبي ، وقدموا صورة المسيح المصلوب كمثال للصليبي المحتمل (٤) . وأن تقليد المسيح المصلوب هو الهدف النهائى للصليبيين (٥) . أما الحملة الصليبية فقد تم تصويرها على أنها معركة روحية لفضائل الصليب ضد رذائل العالم والجسد والشيطان (٦) واعتبروها صلبا مجازيا للجسد والروح تقليدا للمسيح المصلوب (٧) .

وكان سان برنارد يقول فى عظاته أثناء الدعوة للحملة الصليبية الثانية خذوا شارة الصليب وستحصلون فى المقابل على الغفران لكل الذنوب. إن القماش الذى صنعت منه الصلبان، لايساوى الكثير إذا ما تم بيعه ، أما إذا أردتم ارتدائه فمن المؤكد أنه يساوى مملكة الرب (٨) .

أما مكانة الصليب فى الوجدان الشعبى فقد كان هو العلامة على حماية الله ، وضمان مناعة شخصية من الأخطار الجسدية والروحية ، والتحصن من الأعداء ومن كل حيل إبليس (٩) إبليس (٩) وكان وضع علامة الصليب سواء كان للتبرك أو لطرد الأرواح الشريرة اعتقادا راسخا فى مجتمع العصور الوسطى . فالحقول يتم مباركتها بعلامة الصليب من أجل ضمان الخصوبة للأرض ، كما كان يتم الاعتقاد فى شفاء عدد لا يحصى من الرجال والنساء من الأمراض بعلامة الصليب، وأن الشياطين تفر أمام هذه العلامة ، وأنها كانت حماية عامة ضد السحرة والمشعوذين (١٠) . ومن ثم فلم يكن الصليب مجرد رمز أو شعار لحملة أوربان الثانى ، ولكنه كان تعبيراً عن ماهية أو هوية هذه الحملة ، مما يعنى أن العالم المسيحي الغربى قد توحد فى القيام بمشروع حرب دينية ضد المسلمين للاستيلاء على الأرض المقدسة . وقد عبر أحد الكتاب عن أهمية الصليب كركن أساسى من أركان الحرب الصليبية بقوله إذا لم يوجد الصليب فليست هناك حروب صليبية (١١) .

كان البابا اوربان الثانى واضحا فى خطابه ، بأن مجرد النية على المشاركة فى الحملة ليست كافية ولكن يجب تعزيزها بقطع نذر الله يتعهد فيه بالتوجه إلى الأرض المقدسة (١٢) كما

(١) Phillips, Devotion to the Cross, p. ١٠٤.

(٢) Phillips, Crucified with Christ, p. ٣٣.

(٣) Phillips, Crucified with Christ, p. ٣١.

(٤) Phillips, Crucified with Christ, p. ٣٢.

(٥) Phillips, Crucified with Christ, p. ٣١.

(٦) Phillips, Crucified with Christ, p. ٣٢.

(٧) Phillips, Crucified with Christ, p. ٣٣.

(٨) Riley-Smith, The state of Mind of Crusaders, p. ٨٢

ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٦٠ .

(٩) Tyerman, were there Any Crysades, p. ٦٩

(١٠) Constable, crusaders and crusading, pp. ٤٩-٥١.

(١١) Tyerman, Fighting for Christendom ,p. ١٢٥.

(١٢) Robert The Monk, The Historia Iherosolmitana, p. ٧.

حرص البابا بعد ذلك بالتذكير على أهمية النذر في رسائله الخاصة بالدعوة إلى الحرب الصليبية فكتب في رسالة إلى أهل اقليم فلاندر بأن أي رجال قد قطعوا النذر يجب أن يكونوا مستعدين للذهاب إلى القدس في الموعد المحدد (١) ، وفي رسالة إلى مجموعة من الكونتات والفرسان يطلب من الذين نذروا بالذهاب إلى الأرض المقدسة أن يوفوا بنذورهم بمحاربة المسلمين في إسبانيا بدلاً من ذلك (٢) . مما يبين أن هدف الحرب هو قتال المسلمين سواء كانوا في إسبانيا أو فلسطين .

وكان النذر الصليبي ملزماً لمن نذره، وعليه الوفاء به في الوقت المحدد لأن عدم الوفاء به يعرض صاحبه للخطر ، وقد حرص الباباوات على التنبيه للذين نذروا بضرورة الالتزام بموعد الوفاء بالنذر. وعندما كان الصليبيون يحاصرون انطاكية قام البابا اوربان بعقد المجالس الدينية في روما وباري مهددا الذين لم يوفوا بنذورهم بعقوبة الحرمان (٣) كما كتب البابا باسكال الثاني (١١١٨-١٠٩٩) Paschal II سنة ١٠٩٩ إلى الأساقفة ومقدمى الأديرة في بلاد الغال بان كل من اتخذ علامة الصليب ، عليه بالخروج إلا إذا أقعده الفقر (٤).

كان النذر المرتبط بالحج المسلح إلى القدس نذراً مهيباً ، يتم اعلانه في العلن وفي حضور شهود ، وبترتيب من الكنيسة ، وبعد الانتهاء من ذلك يتسلم الناذرون شارة الصليب مثلما حدث في كليرمونت (٥) . أو في اللقاءات التي ترأسها البابا اوربان الثاني في ليموج وأنجييه وتور وغيرها من البلاد ، ثم تولى رجال الدين كل في دائرته منح شارة الصليب لكل من أعلن نذره. ويجب خياطة الصليب على ملابس الصليبي مباشرة بعد النطق بالنذر علامة على خروجه في الحملة (٦) وتتضح الفورية التي يتم فيها توزيع الصلبان فيما ذكره مؤرخ أعمال الفرنجة بأن بوهمند عندما كان يحاصر مدينة امالفي علم بأمر الصليبيين ، وعندما عرف بأن الصليب هو شعارهم ، وعرف مظهرهم وسلاحهم وصيحة حربهم امتلاً في الحال بالروح القدس وأمر بتجزئة عباءة ثمينة كان يرتديها إلى أجزاء صغيرة وأن تعمل صلباناً لتقديمها لمن

(١) Louise and Jonathan, The Crusades, Idea and Reality, p. ٣٨; peters, The First Crusade, p. ٤٢.

(٢) Louise and Jonathan, The Crusades, Idea and Reality, p. ٤٠; peters, The First Crusade, pp. ٤٥, ٤٦.

(٣) Proges, The Nun Combatant, p. ٥.

(٤) Constable, Crusaders and Crusading, p. ٦٦.; Price, The Crusading Vow, p. ٤٤.

رايلي سميث ، الحملة الصليبية الأولى ، ص ١٣٧.

(٥) Maier, Crusades, p. ٤٠٧; Tyerman, Fighting for Christendom, p. ٢٨.

ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٦٧.

يقول وليم الصوري ، قام كل من أقسموا على السفر لهذا الحج برسم شارة الخلاص على ثيابهم ألا وهي الصليب الزاهي ، وبذلك يحملون على أكتافهم ذكرى الذي عزموا على زيارة الناحية التي شهدت آلامه وكانوا في عملهم هذا مقلدين للسيد الذي اسرع إلى هناك من أجل خلاصنا

وليم الصوري، الحروب الصليبية ، ج ١ ص ١٠٨.

(٦) Constable, Crusaders and Crusading, p. ٦٤.; Riley-Smith an Army on Pilgrimage, p. ١٠٦; price, The Crusading, Vow, pp. ٤٤, ٤٥.

يريد الانضمام إليه^(١). وربما كانت هذه هي المرة الوحيدة التي يتلقى فيها المشاركون في حملة صليبية شارة الصليب من أحد العلمانيين دون أداء الطقوس الدينية الخاصة بذلك ، وربما يعود هذا إلى ما ذكره المؤرخ بأن بوهمند قد امتلأ بالروح القدس.

وكانت الإرشادات التي تحكم مظهر الصليب فضفاضة ، فيمكن صنع الصليب من أي نوع من القماش ، فقد كان بعضها مصنوعا من الحرير أو القماش الموشى بالذهب والبعض الآخر مصنوعا من مواد أكثر تواضعا^(٢) ويتم حياكة هذا القماش على هيئة شرائح عرضها بوصتين وأطوالها ست بوصات^(٣) ويتم تثبيت الصليب على الثياب الخارجية للناظر (الحاج المسلح) حتى يتمكن الآخرون من رؤيته والتعرف عليه ، فقد كان من جهة علامة الحماية الإلهية وعلامة التبعية لجماعة معينة وعلامة الحج بشرف حمل السلاح^(٤).

ولم يتفق الكتاب على مكان وضع الصليب على ثياب الصليبي ، فتشير بعض المصادر انه كان من المقرر حياكة شارة الصليب أو طبعها على ملابسهم دون تحديد المكان الذي توضع عليه^(٥). كما تذكر بعض الروايات أن الصليبيين وضعوا الصلبان على أكتاف أرديتهم^(٦). بينما تذكر روايات أخرى أكثر تحديدا أنه كان يتم إحاكة الصلبان على الأكتاف اليمنى من ثيابهم^(٧). وكان ذلك بلا شك إشارة إلى الطريقة التي قيل إن المسيح قد حمل صليبه إلى الجلجثة ، وبدأ الفرنجة على الفور بخياطة الصليب على الكتف الأيمن من ثيابهم قائلين أنهم سيتبعون خطى المسيح الذي خلصهم من قوة الجحيم^(٨) اما روبرت الراهب فكان أكثر تحديدا ووضوحا ووضوحا بقوله أن الصليب كان يوضع على الجبهة أو الصدر بالنسبة للصليبي المتوجه إلى بيت المقدس ، وعندما يفى بنذره وبدأ العودة إلى الوطن فإنه يضع الصليب على ظهره بين اكتافه^(٩).

وثمة معلومات أخرى تشير إلى ان الصليب كان يطبع أحيانا على أجسام الصليبيين ، يقول فوشيه أنه بعد مشاهدته بعض الغرقى من الصليبيين ، أن الصلبان قد طبعت فعلا على جلدهم بين الكتفين^(١٠) ويقول برنارد اوف كونستانس في تاريخه لسنة ١٠٩٦ ، أن كل من

(١) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ص ٢٥ ، توديبود ، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس ، ص ٧٦ ، ٧٧.

(٢) فوشيه ، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ، ص ٨٦.

(٣) Riley-Smith, The First Crusaders, p. ١١.; The state of Mind, p. ٧١.

(٤) ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٦٧ ، ٦٨.

(٥) Albert of Aachen, Historia Ierosolimitana, History of the Journey to Jerusalem, Translated by Susan B.Edgington, (Oxford ٢٠٠٧) ,p. ٤٩; Ekkehard of Aura, Herosolymita , p. ٤٣; Louise and Jonathan, The Crusades Idea and Reality, p. ٥٢.

(٦) فوشيه ، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ، ص ٩٤ ، آنا كومنين ، الكسياد ، ترجمة حسن حبشي (القاهرة ٢٠٠٤) ص ٣٨٨.

(٧) اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ص ١٨ ؛توديبود ، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس ، ص ٦١ ، ٦٢.

(٨) Price, The Crusading, Vow, p. ٤٥.

(٩) Robert The Monk, The Historia Iherosolmiana, p.٧.

(١٠) فوشيه ، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس ، ص ٩٤.

نذروا أنفسهم لهذه الرحلة كانوا موسومين بعلامة الصليب على ملابسهم وأحياناً على أجسامهم^(١) ويقول مؤرخ آخر أن الصليب كان يصنع عادة من القماش ويتم خياطته على ملابس الصليبيين، ولكن البعض ذهبوا أبعد من ذلك وحملوا الصليب على أجسامهم إما بطريقة إعجازية أو بالكي أو الوشم^(٢) ، وتظل علامة الصليب مسيطرة على عقول المشاركين حتى في احلام يفتنهم ، يقول اكهارد أن الصليبيين رأوا فرسانا وجندا من المشاة فى السماء وهم موسومون بعلامة الصليب على جباههم وأردبتهم وعلى أجسامهم^(٣).

يمثل حمل الصليب اللحظة التى دخلت فيها الامتيازات المقدمة من الكنيسة للصليبي حيز التنفيذ ، فقد قدمت الكنيسة مجموعة من الامتيازات الروحية والمادية لجميع أولئك الذين أقسموا على الخروج إلى القدس بوصفهم حجاجا، ولأن مجرد التعهد بالمشاركة فى الحملة وتناول الصليب يعنى أن المشارك أصبح رجلا كنسيا بصفة مؤقتة ، فقد جمع الصليبي بذلك بين الامتيازات الممنوحة للحجاج وتلك الممنوحة لرجال الدين ، فقد كفلت الكنيسة لهم الحماية القانونية بعدم خضوعهم للقانون المدنى أثناء مشاركتهم فى الحملة ، وصارت تبعيتهم للقانون الكنسى، ومنع إقامة أى دعاوى قضائية ضدهم تتعلق بهم أو بممتلكاتهم. كما تكفلت الكنيسة بالحماية لزوجاتهم وأطفالهم ومنقولاتهم وممتلكاتهم ، فيكون الأسقف المحلى مسئولا عن حفظ الممتلكات وإعادتها سليمة إلى المحارب حال عودته إلى الوطن ، كما منحتهم الكنيسة الحق فى تأجيل دفع الديون المستحقة عليهم والإعفاء من سداد فوائدها ، كذلك الإعفاء من الضرائب والمكوس حتى يتم عودتهم من الأراضى المقدسة^(٤) . وقد جعلت هذه الطقوس والإجراءات من الحملة الصليبية شكلاً مؤسسيا من هذه الحرب لخدمة الكنيسة^(٥).

بعد أن يتم الاحتفال بتقديم النذر وحمل الصليب وفق الطقوس التى حددتها الكنيسة ، كان ذلك يعنى أن الصليبي منذ تلك اللحظة صار مشمولا برعاية الكنيسة ، ويقضى وقته بعد ذلك فى الاستعداد للرحيل إلى بيت المقدس وما يتطلب ذلك من ترتيبات لجمع الأموال ورهن أو بيع الممتلكات وغير ذلك . وعندما تكتمل استعدادات الصليبي للخروج كان عليه أن يتقدم إلى رجل الدين المختص للاستئذان فى الخروج ويدلى باعترافاته والحصول على الوعد بالغفران، وبعد ذلك يتسلم من الكاهن رموز الحج التقليدية المتمثلة فى الخرج والعكاز ، ويعد الغفران هو المكون الأخير فى مؤسسة الحرب الصليبية .

(١) Constable, Crusaders and Crusading, p. ٦٤.

(٢) Constable, Crusaders and Crusading, p. ٦٧.

(٣) Ekkehard of Aura, Herosolymita, p. ٤٣.

(٤) وليم الصورى ، الحروب الصليبية ، ج ١ ص ١٠٥ ، ريلى سميث ، ماهى الحروب الصليبية ، ص ٥٧ ،

٥٩؛ ستيفن رنسمان ، الحملات الصليبية ، ترجمة نور الدين خليل ، (القاهرة ١٩٩٤) ، ج ١ ص ١٥٤ ؛

بالار ، الحملات الصليبية والشرق اللاتينى ، ص ٥٧ ، ٥٨ .

Maier, Crusades, p., ٤٠٨, Riley –Smith, The state of Mind, p. ٧١; Tyerman, were There any Crusdes, p. ٥٦٧; Heath, Pelgrim Life in the Middle Ages, p. ٢٥.

(٥) John gilchrist " The papacy and War against the Saracens ٧٩٥-١٢١٦" , IHR, Vol. ١٠, No. ٢ (May ١٩٨٨), p. ١٧٦.

والغفران Indulgence هو الأعمال المصحوبة بالصلاة التي تحددها الكنيسة لكفارة مقبولة أمام الله ، وفاء للعقوبة الدنيوية عن الذنوب بعد تقديم الاعتراف في سر التوبة (١) ويشير المصطلح إلى شعائر الطقوس التي تشكل اعتراف التوبة الشفوي عن الذنوب أمام أحد القساوسة، وأن الاستكمال النهائي لأعمال الترضية أو الكفارة الموقعة من القسيس تؤدي في النهاية إلى قيام الكاهن بإعفاء التائب من العقوبة الدنيوية عن الذنوب بعد الاعتراف في سر التوبة (٢) وقد نشأ الغفران من نظام التوبة الكنسي (٣). وعلى الرغم من أن ذلك كان يسمى منحة الغفران ، إلا أنه لم يكن تبرئة تامة عن الذنوب بالمعنى الدقيق للكلمة لأن الغفران كان يتم تقديمه دون أية ضمانات بأن الله قد قبل فعلا إلغاء العقوبة الدنيوية عن المذنب على الرغم من ابتهاج رجال الدين واستجادهم كثيراً بقوة المفاتيح (٤). وصار مفهوم الغفران وطقوس الكفارة أو سر التوبة بحلول القرن الثاني عشر يعتمد على ما يعرف بمذهب المفاتيح المشتقة مما جاء في انجيل متى " وأعطيت مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون قد ربط في السماء ، وما تحله على الأرض يكون قد حل في السماء " (٥).

وكان هذا الاعتقاد بأن المسيح قد منح البابا الأول ؛ القديس بطرس وخلفاءه الكنسيين القدرة على رفض أو منح التائبين من الذنوب والعقوبة المتعلقة بأنامهم (٦) وينسب أول عرض للغفران التام أو العفو الكامل من كل العقوبات الواجبة لاعتراف التائب عن الذنوب إلى البابا اوربان الثاني عندما كان يدعو إلى الحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٥ ، قيل أنه قدمها لكل من تعهد بقلب سليم ونذر القيام بحج مسلح لتقديم المساعدة للأرض المقدسة (٧).

وقد اعتقد كثير من المشاركين في الحملة الصليبية الأولى أن الغفران بهذا الشكل فرصة سانحة غير عادية قد لا يتم تكرارها كشكل من أعمال الكفارة . فقد دمجت الحملة الصليبية بين الخدمة العسكرية من أجل المسيح وشعيرة الحج ، وقدمت إمكانية محو الذنوب المعترف بها، وكسب الخلاص دون التخلي الكامل والدائم عن الحياة التي اعتادها أو الدخول في الحياة الديرية (٨).

ويشير الكتاب الذين يعتقد أنهم حضروا مجمع كليرمونت إلى هذه المكافأة بطرق مختلفة وإن كان أكثرهم أهمية هم فوشيه الشارترى وروبرت الراهب وجيوبرت النوجنتي وبلدريك الدوللي، يقول فوشيه أن البابا قال : أنني أخاطب الحاضرين وأعلن لأولئك الغائبين ،

(١) Jessalynn Bird, " Indulgences and Penance ", CRUS, Vol.١, p. ٦٣٣; P.F. Palmer/A.Tavard," Indulgences" NCE, Vol.٧, p. ٤٣٦.

(٢) Bird, Indulgences and Penance, p. ٦٣٣; Palmer/ Tavard, Indulgences, p. ٦٣٣.

(٣) Paul E.Chevedden," A Crusade From the First" The Norman Conquest of Islamic Sicily, ١٠٦٠-١٠٩١,MSQ,Vol.٢٢,No.٢ (Sep. ٢٠١٠) pp.٢١٤,٢١٥.

(٤) Palmer/Tavard, Indulgences, p. ٤٣٦.

(٥) انجيل متى ، ١٦ : ١٩.

(٦) Chevedden,A Crusade From The First,pp.٢١٥,٢١٦; Bird, Indulgences and penance, penance, p. ٦٣٣.

(٧) Bird, Indulgences and Penance, P.٦٣٤.

ريلى سميث ، الحملة الصليبية الأولى ، ٣٤ ، ٣٥.

(٨) Jean Flori, Ideology and Motivations, p.٢٢; Bird, Indulgences and Penance, p.٦٣٤.

كما أن المسيح يأمر بهذا ، أن ذنوب كل أولئك الذاهبين إلى هناك سوف تغفر إذا انتهت حياتهم بأغلالها الدنيوية سواء أثناء مسيرتهم على الأرض ، أو عند عبورهم البحر، أو في خضم قتالهم ضد الوثنيين . هذا الغفران أمنحه لكل من يذهب بمقتضى السلطة التي أسبغها الرب على (١) . بينما يقول روبرت الراهب أن البابا وجه حديثه إلى من قد يعوقهم حب الأولاد والآباء والزوجات عن الذهاب لنجدة الأرض المقدسة والضريح المقدس بأن يتذكروا ما قاله الله في الإنجيل (٢) " من أحب أباه أو أمه أكثر منى فلا يستحقنى ، ومن أحب ابنه أو ابنته أكثر منى فلا يستحقنى، ومن لا يحمل صليبه ويتبعنى فهو لا يستحقنى " (٣) " وأن من ترك بيوتاً أو أخوة أو أخوات أو أباً أو أما أو أولاداً أو أراضى من أجل اسمى فإنه ينال مائة ضعف ويرث الحياة الأبدية " (٤) ثم يضيف روبرت بأن البابا قال أخرجوا فى هذه الرحلة من أجل غفران ذنوبكم مع الوعد بالمجد الذى لا يفنى فى مملكة السماء (٥) .

أما جيوربرت النوجنتى فلم يشر إلى قول البابا بغفران الذنوب ولكنه قال أن الصليبيين سينعمون بالحياة الأبدية ، لأن القتال قد يتضمن الجائزة المجيدة للشهادة (٦) . ويقول أن مشاركتهم تحقق لهم الخلاص دون أن يضطروا للهجر النهائى لشئونهم العلمانية ، باختيار الحياة الديرية أو أية وظيفة دينية (٧) . ويتحدث أيضاً بلدريك الدوللى عن مكافأة الشهادة عندما عبر البابا عن أمله فى عودة الصليبيين منتصرين إلى بلادهم أو مخرجين فى دمائهم ويحصلون على المكافأة الأبدية ، ثم يقول أن الرحلة قصيرة والعمل قليل ومع ذلك فسوف تتأبون عليه بالتاج الذى لا يتلاشى ثم خاطب البابا كلا من الأساقفة والقساوسة وطلب منهم أن يبشروا بالرحلة إلى أورشليم وأن يمنحوا الغفران من جميع الذنوب للمشاركين بعد ان يؤدوا الاعتراف (٨) .

ويجب الأخذ فى الإعتبار أن التقارير التى كتبها هؤلاء المؤرخون قد كتبوها بعد خطاب البابا فى كليرمونت بسنوات، وفى تقييم هذه الأدلة يجب الانتباه إلى أن خطاب أوربان الثانى قد تمت صياغته على هيئة موعظة ، ومن ثم يمكن فهم اختلاف الروايات عند المؤرخين على أنها كانت محاولة لتوصيل الرسالة التى اعتقدوا أن البابا قالها فى هذه المناسبة والتعبير عنها بطريقة ملائمة لقرائهم من وجهة نظرهم .فقد أعطى هذا المجمع وعد لجميع من يذهبون إلى الحملة

(١) فوشيه ، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ، ص ٩٣ .

(٢) Robert The Monk, Iherosolmitana, p. ٦٠

(٣) انجيل متى ، ١٠ : ٣٧، ٣٨ .

(٤) انجيل متى ١٩ : ٢٩ .

(٥) Robert The Monk, Iherosolmitana, p. ٧ .

(٦) Louise and Jonathan, The Crusades, Idea and Reality, p. ٤٦; peters, The First Crusade, p. ٣٤ .

قاسم عبده قاسم ، الحملة الصليبية الأولى ، نصوص ووثائق ، ص ٨٢ .

(٧) Louise and Jonathan, The Crusades, Idea and Reality, p. ٥٥ .

(٨) Peters, The First Crusade, p. ٣٢;:: Louis and Jonathan, The Crusades, Idea and Reality, p. ٥٢ .

قاسم عبده قاسم ، الحملة الصليبية الأولى ، نصوص ووثائق ، ص ٨٨ .

الصليبية شخصيا وعلى نفقتهم الخاصة بغفران جميع الذنوب التي اعترفوا بها بقلب ملؤه الندم. وقد بدا ذلك وكأنه يعني غفرانا تاما للذنوب ذاته (١) وهكذا فقد فتح اوربان فجأة وبطريقة غير مسبوقة باب الخلاص (٢) ولذلك فإن المصدر الأفضل الذي يعبر عن أفكار اوربان الثاني ومكافأته الروحية التي وعد بها الصليبيين هي خطاباته الخاصة في هذا الشأن التي كتبها قبل وبعد كليرمونت . وفي محاولة تفسير ماجاء في هذه الخطابات فإنه من المفيد النظر في الوعود المماثلة التي منحها الباباوات السابقين ، وتقاليده منح الغفران من الذنوب للمقاتلين الذين يقاتلون من أجل البابوية (٣).

ان الفكرة بأن الحرب من أجل الكنيسة تستحق المكافأة لم تكن مرتبطة في البداية بقتال المسلمين ، فقد حدث بالفعل في القرن الثامن عندما قام كل من البابا جريجورى الثالث وستيفن الثاني وبول الأول باجراء اتصالات مع الفرنجة لإقناعهم بالدفاع عن الولايات البابوية من اعتداءات اللومبارديين والبيزنطيين، وقيل للأمرأ أنهم بمساعدتهم للبابوية يستحقون إكليلا من الله وان مقاعدهم في السماء ستكون في موقع كريم ، وإلى يمين الشهداء مباشرة ولكن لم يقال أنهم سيكونوا شهداء (٤) .

وفي القرن التاسع كانت الوعود الروحية مرتبطة بالصراع ضد العرب في ايطاليا والدفاع عن روما والضيعة البابوية نفسها ، وفي ضوء التهديد المستمر قام البابا ليو الرابع (٨٤٧-٨٥٠) باستدعاء الكارولنجيين لقتال العرب والدفاع عن الولايات البابوية ، وفي سنة ٨٥٣ وعد المقاتلين الكارولنجيين بأن من يموت في هذه الحرب سيحصل على الجائزة السماوية ، لأن الله القدير يعلم أنه عندما يموت أحدهم فإنه قد مات في سبيل العقيدة الصحيحة ، ومن أجل الدفاع عن المسيحية (٥). وقدم البابا يوحنا الثامن (٨٧٢-٨٨٢) غفران الكفارة بمحو جميع العقوبات عن الخطايا لكل من يحارب ويموت في القتال دفاعا عن الكنيسة (٦).

أما وعود البابا ليو التاسع (١٠٤٩-١٠٥٤) لمن يقاتل في صفوفه ضد النورمان في إيطاليا ، كانت الوعد بالغفران من الذنوب ومن الكفارة الواجبة عن ذلك (٧) . وفي عهد البابا اسكندر الثاني (١٠٦١-١٠٧٣) بدأت سلسلة من الوعود الروحية للمحاربين المسيحيين الذين

(١) ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٥٩.

(٢) John France " Urban II and the Impact of the Council Op Clermont, CREU, p. ٨٩.

(٣) Ane L.Bysted, The Crusade Indulgence, Spritual Rewards and the Theology of the Crusades, ١٠٩٥-١٢١٦,(Boston ٢٠١٤), pp. ٤٨-٥٠.

(٤) Bysted, The Crusade Indulgence, p. ٥٣

(٥) France, The Crusades and The Expansion, pp. ٤٢,٤٣, , Urban II and The Impact, pp.٧٨,٧٩; Tyerman, Fighting For Christendom,p.١٠٦.

ماستناك، السلام الصليبي ، ١٠٩.

(٦) Tyerman, Fighting for Christendom, p. ١٠٦; Bysted, The Crusade Indulgence, pp.٥٦,٥٧.

(٧) H.E.J.Cowdrey." New Dimensions of Reform. War as path to Salvation",JGO, pp. ١١.١٢; Tyerman, Fighting For Christendom,p.١١٠; Bysted,The Crusade Indulgence, p.٥٧.

جان فلورى ، الحرب المقدسة ، ترجمة غسان مایسو ، (الدار العربية ٢٠٠٤)، ص ١٨٠-١٨١.

يقاتلون المسلمين ، فقد أمر بمنح الأمير روجر النورمانى وفرسانه الذين كانوا يستعدون لغزو صقلية مغفرة خطاياهم هو وفرسانه الذين كانوا على وشك القتال معه ضد المسلمين (١) . وبعد انتصار النورمان فى صقلية سنة ١٠٦٣ منحهم البابا الغفران الصليبي (٢) . وقام البابا بنفس الشئ مع المحاربين المسيحيين الذين يقاتلون المسلمين فى إسبانيا (٣) . وفى احدى خطاباته قام بمنح الذين قرروا الذهاب إلى اسبانيا الكفارة التى تتناسب مع ذنوبهم ، بل أنه قرر إلغاء العقوبة التى خصصت لهم ، ومنحهم الغفران عن ذنوبهم بموجب سلطة الرسل بطرس وبولس ومايلى ذلك من صلواته(٤).

وللمرة الأولى منذ القرن الثامن نجد وعدا باباويا بالمكافأة الروحية للمشاركين فى الحرب، ليس وعدا بالمكافأة السماوية ولكنه يتكون من غفران الذنوب وغفران الكفارة المخصصة لذلك(٥).

أما البابا جريجورى السابع (١٠٧٣-١٠٨٥) فقد ترك عددا كبيرا نسبيا من وعود الغفران فى رسائله، وقد صدرت هذه الوعود فى ثلاث مناسبات، عندما كان يسعى لتجنيد حملة واسعة النطاق لقتال المسلمين فى الشرق ، والأمر الآخر الوعود التى وعد بها حلفائه النورمان، والوعود المتعلقة بصراعه مع الإمبراطور هنرى الرابع . ووفقا للعادة فى عهد جريجورى السابع كان على المحاربين الخارجين فى حملة أو معركة أن يقوموا بالاعتراف الكامل بذنوبهم ويتلقون العفو. وتزايد الاعتقاد فى عهده بأن الحرب فى خدمة الكنيسة هى المرور الممكن للخلاص . وفى رسائله المتعلقة بالحملة ضد المسلمين فى الشرق نجد تنوعا فى الوعود ، فمرة يتحدث عن المكافأة التى يمنحها كل من القديس بطرس والقديس بولس، ومرة ثانية يتحدث عن الوعد بغفران الذنوب ، ومرة ثالثة يتحدث عن الغفران الكامل (٦) وفى رسالتين منح فيهما الغفران للنورمان ينبه على الأساقفة أن يتأكدوا بأن الغفران يتوقف على أداء الكفارة (٧). أما المجموعة الثالثة من الوعود الروحية فقد منحها لمؤيديه فى صراعه ضد الامبراطور الالمانى

(١) Paul E.Chevdden " Pope Urban II and the Ideology of the Crusades CRW, p. ١٦; and A Crusade From the Frist, pp. ٢١٤, ٢١٧.

(٢) Chevdden, Pope Urban II, p. ٢١.

(٣) H.E.J. Cowdrey, The Genesis of the Crusades, HOW, p. ٢٥; Chevdden, Pope Urban II, p. ٢١.

ريلي سميث ، الحملة الصليبية الأولى ، ص ٣٥

(٤) Bysted, The Crusade Indulgence, pp. ٥٧, ٥٨; Joseph E.O.Callaghan, Reconquest and Crusade in Medieval Spain, (Pennsylvania, ٢٠٠٣), p. ٢٤.

جان فلورى ، الحرب المقدسة ، ص ٢٠١ ، رابلي سميث ، ماهى الحروب الصليبية ، ص ٦١ ، ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٤٩ ، ماستاك ، السلام الصليبي ، ص ٥٤.

(٥) Callaghan, Reconquest and Crusade, p. ٢٤; Bysted, The Crusade Indulgence, p. ٥٨.

(٦) Bysted, The Crusade Indulgence, pp. ٥٨, ٥٩.

(٧) Bysted, The Crusade Indulgence, p. ٦٠.

هنرى الرابع (١٠٥٦-١١٠٥) ، فقد قام بمنح الغفران الكامل من الخطايا بدون أية شروط ، ولم يعد يشترط إلى أداء الكفارة كشرط للحصول على المكافأة^(١).

وهكذا فإن الوعود البابوية بالمكافآت الروحية للمقاتلين من أجل مصالح الكنيسة والبابوية قبل بابوية أوربان الثاني تبين أنه لا توجد صيغة محددة لهذه الوعود في تلك الفترة ، وغالبا ما كانت تصاغ على هيئة وعود بالحياة الأبدية ، أو الغفران أو غفران الذنوب ، ومن ثم كان يتم تفسير الوعد بشكل مختلف من مكان لآخر .

وقد منح أوربان الثاني بالفعل مكافآت روحية للمحاربين من أجل الكنيسة قبل اعلان الحملة الصليبية الأولى ، وتلقى هذه الوعود بعض الضوء على الأجر الروحي الذى وعد به فى كليرمونت ، والعلاقة بين أفكاره وتراث سابقه ، وأخذ البابا مشاركة البابوية فى الحرب فى إسبانيا بجديّة وحماس، وقام منذ وقت مبكر من باباويته بتشجيع ودعم حرب الاسترداد المسيحية بالخطابات ومنح المزايا الروحية . فكتب فى سنة ١٠٨٩ إلى النبلاء ورجال الدين فى قطلونيا يحثهم على استعادة مدينة ترغوته الإسبانية من المسلمين فى مقابل الحصول على الكفارة وغفران الذنوب مثل التى يتم الحصول عليها بزيارة الضريح فى أورشليم^(٢) ثم كتب بعد ذلك فى سنة ١٠٩١ إلى ارمنجود Ermengaud كونت ايرجل Urgell يحثه على العمل من اجل استعادة المدينة وكنيستها ، ويصف أوربان هذا العمل كقربان مقبول من الله ، وقد يحصل الكونت بموجبه على غفران الذنوب^(٣).

وبعد مجمع كليرمونت تابع البابا أوربان الدعوة للحملة الصليبية وكتب إلى رجال الفلاندر يحثهم على المشاركة فى الحملة ويوضح المكافآت الروحية التى أعلن عنها فى كليرمونت ، ومن ثم فإنه يدعوهم للمشاركة من أجل غفران ذنوبهم^(٤) وفى سبتمبر ١٠٩٦ كتب لاتباعه فى بولونيا يبين لهم الجائزة التى تم الوعد بها فى كليرمونت بأنه إذا ذهب أى رجال منهم فى هذه الحرب ليس لرغبتهم فى المكاسب الدنيوية ولكن فقط لخلاص أرواحهم وتحرير الكنيسة ، فإننا نعمل بمقتضى سلطاتنا وكذلك وفقا لسلطة أساقفة كل بلاد الغال بفضل رحمة الله القدير وصلوات الكنيسة الكاثوليكية أن نعفيهم من الكفارة المفروضة عليهم لقاء ذنوبهم التى اعترفوا بها اعترافا كاملا لأنهم قد خاطروا بممتلكاتهم وحياتهم فى حب الله ومحبة جيرانهم^(٥).

(١) Bysted, The Crusade Indulgence, p. ٦١

(٢) Callaghan, Reconquest and Crusade, pp. ٣١, ٣٢; Nicholas L. Paul " The Fruits of Penitence and the Laurel of the Cross", CRE, pp. ٢٥٢-٢٥٣; Chevdden, Pope Urban II, p. ٢١; Riley-Smith, The First Crusaders, p. ٦٦; Cowdrey, War as Path to Salvation, p. ٢١.

(٣) Cowdrey, War as Path to salvation, p. ٢١, Bysted The Crusade Indulgence, p. ٦٦.

(٤) Louise and Jonathan, The Crusades Idea and Reality, p. ٣٨; Bysted, The Crusade Indulgence, p. ٦٧.

(٥) Louise and Jonathan, The Crusades Idea and Reality, p. ٣٩; Peters, The first Crusade, p. ٤٤.

ومع بداية الحملة الصليبية كتب أوربان من جديد إلى كونتات قطلونيا عندما تنهى إلى علمه عن عزم بعضهم الالتحاق بالجيش الصليبي في الشرق، فقد طلب منهم البقاء في إسبانيا والعمل على استعادة ترغونة " لأنه ليس من الصواب إنقاذ المسيحيين من المسلمين في مكان لكي نعرضهم إلى ظلم واضطهاد المسلمين في مكان آخر ، وطمانهم بحصولهم على الجزاء السماوي بقوله ، ولا ينبغي لأحد أن يشك في أنه إذا مات في هذه الحملة محبة في الرب وفي اخوته ، فإن خطاياهم سوف تغفر بالتأكيد ، وينال نصيبه في الحياة الأبدية .^(١).

تحدث أوربان عن المكافآت الروحية الممنوحة نظير القتال من أجل الكنيسة ، سواء كان في إسبانيا أو في الأرض المقدسة بنفس اللغة ونفس المفاهيم . وفي كلتا الحالتين كانت فكرته بأن المشاركة في أعمال القتال مثل الكفارة تماما لأنه يتم تقديمها قربانا لله . ويمكن أن نستخلص من تصريحاته بأن المكافآت التي تمنح للمقاتلين الذين تكتب لهم الحياة ستكون غفران الذنوب وغفران الكفارة ، بينما المكافأة لهؤلاء الذين يقضون نحبهم ستكون غفران الذنوب والحصول على الحياة الأبدية^(٢) .

وكان منح الغفران للمشاركين في الكنيسة مهم جدا لأنه سيصبح الملمح الرئيسي للحرب الصليبية بالنظر إليها كمؤسسة ، ولكن منح الغفران في حد ذاته هو ما جعل جوهر هذه المؤسسة أنه لا يصرح بها إلا البابا فقط^(٣).

إن الفارق بين غفران عقوبات التوبة والتبرئة من عقوبات الذنوب مازال كافيا لتفسير نجاح دعوة البابا في كليرمونت ، مع أن ما يحصل عليه المرء بالاعفاء من متطلبات التوبة ، عندما يحارب المسلمين لم يكن بالأمر المستحدث، أما ما أعلنته دعاية الكنيسة بأن من يحمل الصليب يتحقق له كفارة عقوبات الذنوب ، فقد كان بدعه لم يسمع بها من قبل^(٤) وبذلك فقد حصل الصليبيون على أسمى الامتيازات الروحية وذلك بغفران كل ما تقدم وما تأخر من الذنوب، مع دخول الجنة بغير حساب^(٥).

وفي وقت الحملة الصليبية الأولى كان تسلم الصليب واستقبال رموز الحج والغفران طقسا منفصلا ومتمايزا على الرغم من أن كليهما كان يترأسه أحد رجال الدين^(٦) . وعلى الرغم من أنه لا توجد وثائق لوصف هذين الاحتفاليين في بداية الحروب الصليبية ، إلا أن هذه الاحتفالات والطقوس قد استمرت على الأقل حتى بداية الحملة الصليبية الثانية ، فنجد أن الاحتفاليين مستقلان ومنفردان ، ويفصلان عن بعضهما زمانا ومكانا ، وهما الاحتفالات بالملك

(١) Louise and Jonathan, The Crusades Idea and Reality, p. ٤٠; Callaghan, Reconquest and Crusade, p. ٣٣, Peters, The First Crusade, p. ٤٦.

قاسم عبده قاسم ، الحملة الصليبية الأولى ، نصوص ووثائق ، ص ٨٩ ، ٩٠ .

(٢) Bysted, The Crusade Indulgence, p. ٧٢.

(٣) Peter Charanis " Amis of the Medieval Crusades and How They were Viewed by Byzantium" CHH, Vol.٢١, No. ٢. (Jun,١٩٥٢) pp. ١٢٤,١٢٩; Maier, Crusades, p. ٤٠٧.

(٤) ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٦١ .

(٥) رايلي سميث ، ماهي الحروب الصليبية ، ص ٦ .

(٦) Bysted, The Crusade Indulgence, p. ٥٠

لويس السابع (١١٣٧-١١٨٠) عندما قرر الخروج في حملة صليبية . فقد أقسم على القيام بالحملة في ٣١ مارس ١١٤٦ في فيزلاي Vezlay ، وأرسل إلى البابا يوجينيوس الثالث (١١٥٣-١١٤٥) Eugene III لإبلاغه بنذره ، واستئذانه في ذلك . ولما كانت ظروف البابا لاتسمح له بالتوجه إلى فرنسا لحضور الاحتفال بحمل الصليب فقد قام بتفويض برنارد مقدم دير كليرفو للقيام بأداء هذا الطقس الاحتفالي بتسليم شارة الصليب إلى الملك. وفي الوقت والمكان المحددين للاحتفال ، احتشدت جموع غفيرة ، وتلقى الملك ومعه كثير من النبلاء شارة الصليب التي أرسلها البابا. وبعد ذلك قام برنارد بتوزيع الصليب على من يطلبها ، وعندما نفذت حزمة الصليب التي تم إعدادها لذلك ، اضطر برنارد إلى تمزيق عباءته إلى شرائح لتوفير الصليب (١) . ثم حدث بعد ذلك في يونيو ١١٤٧م قبيل خروج الملك في الحملة، أن تم الاحتفال في كنيسة سان دينيس بأن تلقى لويس من البابا يوجينيوس الثالث رموز الحج ؛ الجعبة وراية الحرب الخاصة بالتاج الفرنسي بدلا من العكاز (٢) . ومن الجدير بالذكر أن برنارد استطاع في نفس الوقت اقناع كونراد الثالث ملك المانيا بالمشاركة في الحملة ، فتناول الملك الصليب ، وحمله في أثره عدد لا يحصى من النبلاء (٣) .

ومن واقع هذه الاحتفالات بحمل كل من لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث (١١٣٨-١١٥٢) ملك المانيا للصليب بناء على دعوة البابوية وممثليها ، فإنما يتأكد أن هذه الحرب لم تكن حربا للملوك أو شعبا من الشعوب وإنما كانت حربا للبابوية . وقد شارك الملكان بناء على طلب البابوية. وقاما باتباع الطقوس الخاصة بذلك .

هذه هي الخطوات أو الطقوس التي يجب على الصليبي النموذجي أن يتبعها ليكون مقاتلا في الحملة الصليبية، ولكن من هو الصليبي ، أو من هم الذين استجابوا لنداء البابا أوربان الثاني . من المعروف أن البابا أعلن نداء للحرب في مجمع كليرمونت ، وهي أرض فرنسية ومعظم الحاضرين في المجمع كانوا من الفرنسيين ، وأن أول من أعلن عزمه على المشاركة في تلك الحرب وهو الأسقف ادهيمار كان من الفرنسيين. فهل كل من شارك في هذه الحرب كانوا من الفرنجة ، أم أنه بسبب أن البابا أوربان كان فرنسيا عقد مجمعا على أرض فرنسية بين حضور من الفرنسيين ، كان الفرنسيون أسرع في الاستجابة لنداء البابا. وهذا يبدو صحيحا، ولكن هل اكتفى أوربان الثاني بتلك الجهود في الدعوة لمشروعه، لم يتوقف أوربان وإنما تابع الدعوة داخل فرنسا (٤) وخارجها ، فانتشرت رسائله ومؤتمراته لتمتد إلى إيطاليا وإنجلترا وبلاد

(١) ODo of Deuil, The Journey of Louis VII to the East, translated by Virginia Gingerick Berry, (USA ١٩٤٨), p. ٩; Charles D.G. Spornick, The Life and Reign of Pope Eugence III, (١١٤٥-١١٥٣), PHD, (Notre Dam, Indiana, ١٩٨٨), p. ١٠٨.; Riley Smith, The State of Mind, p. ٦٩.

(٢) ODo of Deuil , The Journey, p. ١٧; Riley –Smith, The state of Mind, p. ٧٠; Riley-Smith, An Army on Pilgrimage, p. ١٠٦

(٣) ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٥٠ .

(٤) تم الدعوة في بروفانس وبورجندي العليا ولانجدوك وهي أقاليم لا يقطنها الفرنجة ولكن يقطنها البرجنديون والقوط والاكوتينيون .

Riley-Smith, The First Crusaders, p. ٦٤.

وبلاد الفلاندر وغيرها يدعوهم للمشاركة في الحملة (١) . وهذا يعنى أن أوربان لم يقتصر في دعوته على الفرنجة فقط ، وإنما أراد أن تشارك أوربا الكاثوليكية جميعا في هذه الحملة التي حدد هدفها بتحرير الضريح المقدس واسترداد الأراضي المقدسة ، وحدد في رسالته أن العدو الرئيسي هم المسلمون .

انتشرت دعوة أوربان الثاني للحرب بفضل مجموعة هائلة من الدعاة من داخل الكنيسة أو خارجها ، وكانت الاستجابة السريعة للعامّة أسبق من الجيوش النظامية للأمرء . وكانت معظم جموع العامّة من الألمان والإيطاليين (٢) . أما حملات الأمرء فكانت بقيادة كونت فرماندو على رأس قوات قليلة من الفرنجة ، أما الجيش الفرنجى الرئيسى فكان بقيادة ريموند السانجيلى ، وكان هذا الجيش يمثل الكتلة الفرنجية الرئيسية ، أما بقية الجيوش فكانت من أجناس مختلفة ، جودفرى وأخوه بلدوين على رأس قوات من غرب ألمانيا (٣) . وبوهمند وابن اخته تانكرد على رأس جيش من نورمان جنوب إيطاليا ، فضلا عن بعض القوات الانجليزية بقيادة روبرت النورمانى ابن ملك انجلترا وليم الفاتح (١٠٦٦ - ١٠٨٧) ، وربرت فلاندر على رأس قوات من الفلمنج وبذلك يتضح أن ما كان يهدف إليه البابا أوربان قد تحقق واشترك معظم الغرب الأوروبى في هذا المشروع. ومع انه قد ظهر منذ البداية أن الغرب الأوروبى قد استجاب ، ولم تكن المشاركة مقصورة على بلد بعينه، إلا أنه يحلو للبعض اطلاق مصطلح حرب الفرنجة بدلا من الحرب الصليبية . ويتعجب أحد المؤرخين أنه بينما امتد التجنيد للحملة الصليبية من جنوب إيطاليا وصقلية إلى لومباردى ومن الأراضي الفرنسية فى أكويتين وبروفانس إلى نورماندى وفلاندر وإلى الأراضي المنخفضة وغرب ألمانيا وأرض الراين وأقاليم بحر الشمال والدانمرك ، فإن المصادر العربية واللاتينية تصفهم جميعا بالفرنجة (٤) . والحقيقة أن هذا الرأى به شئ من المبالغة خاصة أن المصادر المسيحية سواء اللاتينية أو اليونانية أو الأرمنية لم تلتزم بهذا المصطلح وصارت تطلق على القوات الصليبية مسميات خاصة مثل جيش المسيحيين أو جيش المؤمنين . وكانت الأميرة أنا كومنين أكثر حرصا على تسمية كل شعب من الصليبيين باسمه. فوصفت جموعهم بأنهم فريق كبير مؤلف من أقوام متباينى الأجناس من أمم

(١) بينما كان البابا أوربان يتجول فى فرنسا سافرت بسرعة رسائل البابا ومنذوبيه إلى انجلترا ونورماندى وفلاندر وإلى جنوة وبولونيا ، يحثون ويأمرون ويقنعون بالمشاركة فى المشروع البابوى.

Proges, The Nun Combatant, p. ٤.

(٢) أعمال الفرنجة ، ص ١٩

Mulinder, The Crusade of ١١٠١, p. ٤٤.

(٣) كانت قوات جودفرى تتكون من قوات اقليم بويلون Boillon فى لوثرنجيا السفلى مع قوات ضخمة جاءت من لوثرنجيا العليا والأراضي المجاورة فى فرنسا وهولندا.

Mulinder, The Crusade of ١١٠١, p. ٤١.

(٤) Tyerman, Fighting for Christendom, p. ٣٩

ويشير أحد الكتاب إلى أن الفرنج مصطلح يستخدم أحيانا للإشارة إلى الأوربيين الغربيين ، وتم استخدامه فى القرن الثانى عشر للإشارة إلى الألمان والفرنسيين ، وهذا وصف غير دقيق سواء للفرنسيين أو للألمان ، لأن كلا الدولتين متعددة الأجناس والأعراف.

Slack, Historical Dictionary, p. ٩٧.

شتى ومن مختلف النواحي (١) ولم يفوتها أن تذكر كل شعب باسمه فذكرت الفرنجة (٢) ، والنورمان (٣) والكلت (٤) واللاتين (٥) . وعندما أبدت ' إعجابها بكونت ريموند السانجيلي قالت أنه يبدو بين اللاتين كالشمس في وسط نجوم السماء(٦) . وعندما حاصر الصليبيون مدينة نيقية قالت كان الإمبراطور يعرف أنه من الصعب على اللاتين الاستيلاء على نيقية حتى ولو كان معهم قوات لا تحصى (٧) ثم نجد مؤرخا آخر عند حديثه عن الصليبيين يقول أن أسنة رماح اللاتين سوف ترتوى من دماء البرابرة (٨) . وفي موضع آخر عندما يصف القتال بين الصليبيين والسلاجقة يقول ، اندفعت صفوف اللاتين والبرابرة في الهجوم(٩) وأحيانا يصف جيش الصليبيين بأنه جيش المسيحيين (١٠).

بينما يذكر البرت الأخيني أن بطرس الناسك عندما وجد رجاله يخترمهم الموت ويغرقون أصدر أوامره إلى البافاريين والسوابيين وبقية الألمان لمساعدة اخوانهم الفرنسيين (١١) . ويقول مؤلف أعمال الفرنجة متباهيا بكثرة الجيش الصليبي قائلا ، فمن ذا الذي يستطيع إحصاء جيش المسيح(١٢) .

وكان فوشيه الشارترى أكثر المؤرخين إشارة إلى هذا التنوع الكبير للمشاركين في هذه الحملة فيقول ، ومن ذا الذي سمع من قبل عن مثل هذا الخليط اللغوي في جيش واحد ، كان هناك الفرنجة والفلمنج والفريزيون والغال والألوبروجيون واللوثرنجيون والأليمانى والبافاريون والنورمان والانجليز والاسكتلنديون والاقطانيون والإيطاليون والداشيون والأبوليون والأيبيريون والبريتون واليونان والأرمن (١٣) . ولكن على الرغم من اختلاف ألسنتنا كنا نبدو أخوة في حب الرب(١٤) . وفي نفس السياق يقول اكهارد أن حوالى مائة ألف من الرجال انضموا إلى جيش الرب، وكان هناك بالتأكيد رجال من أكويتين ونورماندى وانجلترا واستكتلندا وإيرلندا وبريطانيا، وجايكا وجاسكونى والغال وفلاندر ولوترنجيا ومن ممالك مسيحية أخرى ،

(١) أنا كومنين ، الكسياد ، ص ٤٠٤ .

(٢) أنا كومنين ، الكسياد ، ص ٣٨٩ .

(٣) أنا كومنين ، الكسياد ، ص ٣٩١ .

(٤) أنا كومنين ، الكسياد ، ص ٣٩٠ .

(٥) أنا كومنين ، الكسياد ، ص ٣٩٨ ، ٤٠٢ .

(٦) Anna Comnena, The Alexiad, translated by Elizabeth A.S.Dawes, (Cambridge ٢٠٠٠), p. ١٩٠ .

(٧) Anna Comnena, The Alexiad, p. ١٩٢ .

(٨) Ralph of Caen, The Gesla Tancredi, A History of the Normans on the Frist Crusade trans, Bernard S.Bachrach and David S.Bachrach, (Ashgate Publishing ٢٠٠٥), p. ٣٩ .

(٩) Ralph of Caen, Gesta Tancredi, p. ٤٥ .

(١٠) Ralph of Caen, Gesta Tancredi, pp. ٤٤, ٤٦, ٤٨, ٤٩ .

(١١) Albert of Aachen, Historia Ierosolimitana, p. ١٩ .

(١٢) أعمال الفرنجة ، ص ٣٥ .

(١٣) فوشية ، تاريخ الحملة الى بيت المقدس ، ص ١١٦ .

(١٤) فوشية ، تاريخ الحملة الى بيت المقدس ، ص ١١٧ .

وعلى الرغم من أنهم يتحدثون لغات عديدة وينحدرون من شعوب وقبائل شتى ، تجمعوا فجأة في جيش واحد تربطهم أخوة المسيح (١).

وهذا يعنى أن كل أوربا تقريبا كانت مشاركة في هذه الحملة ، وهذا ما ينفى عنها صفة أنها كانت ممثلة لشعب واحد من الشعوب الأوربية . وإذا كان البابا أوربان الثانى قد وجه حديثه في مجمع كليرمونت إلى شعب الفرنجة فإنه في مجلسه الأخير في كنيسة القديس بطرس طالب بأهمية إرسال التذعيمات لمساندة الجيوس اللاتينية في الشرق (٢). وذلك إدراكا منه أن الحملة تمثل الكنيسة الكاثوليكية . ويؤكد رايلي سميث ذلك بأنه لم يجد أى وثيقة كتبت عن الصليبيين الأوائل تتضمن كلمة فرنجة Frank وأنه كان من النادر جدا استخدامها في مكاتبات الصليبيين أنفسهم (٣) . أما ما جاء في خطابات الصليبيين إلى ذويهم أو أساقفتهم فإنها كانت تذكر جنود الحملة بأنهم جيش الرب أو جيش المسيح (٤). دون أى ذكر للفرنجة .

ومما يؤكد انتماء الجيوش إلى الكنيسة اللاتينية دون أى انتماء لسلطة مدنية ، وأن ما يتم انجازه على الأرض كان لصاح الكنيسة ما كتبه أنسلم أسقف ريمونت بعد استيلاء الصليبيين على أنطاكية إلى مناسس الثانى رئيس أساقفة ريمس بأن الجيش قد استولى من أجل الرب على مائتى مدينة وحصن ، فلعل أمنا الكنيسة الغربية تبتهج بأنها أنجبت هؤلاء الرجال(٥). وفى نفس الوقت كتب قادة الحملة الصليبية إلى البابا أوربان الثانى بعد استيلائهم على أنطاكية يبلغوه بأنهم قد انتقموا للرب العظيم ، ولقد قام يسوع المسيح بتخليص أنطاكية كلها وتسليمها إلى الديانة والعقيدة الكاثوليكية . ثم يخبروه بوفاة المندوب البابوى ، ويطلبون من البابا أن يحضر بنفسه لقيادتهم... ويقولون وهكذا تنهى معنا الحج الذى قمنا به إلى يسوع المسيح (٦).

إن ايديولوجية القادة الصليبيين مازالت واضحة بأنهم يمارسون حربهم الدينية وينتصرون للكنيسة الكاثوليكية دون تفرقة أو تمييز بين أى جنس أو شعب من الشعوب الأوربية المشاركة ، وقد لاحظ ريموداجيل أن المسلمين لا يميزون بين أجناس وشعوب الحملة الصليبية ويعتقدون بأنهم جنس واحد مع أن جيش الفرنجة كان يضم مجموعة من البروفنساليين من برجندى وأوفرني وجاسكونى وجوتيا وهم ليسوا من الفرنجة معنى ذلك أن الجيش الفرنسى نفسه لم يكن كله من الفرنجة ، ثم يقول بأن العدو لا يميز ويستخدم كلمة فرنجة للإشارة إلى جميع قوات الحملة (٧). وإن اطلاق المسلمين اسم الفرنجة على قوات الجيوش الصليبية المكونة المكونة من خليط من الشعوب والأمم الأوربية كان أمرا طبيعيا، لأنه من غير المعقول أن يقوم

(١) Ekkehard of Aura, Hierosolymita, pp. ٤٣,٤٤.

(٢) Robert Somevill " The Crusade in the council of Urban II beyond Clermont" JGO, p. ٩٥.

(٣) Riley-Smith, the First Crusaders, p. ٦٤.

(٤) Peters, The First Crusade, pp. ٢٢٣,٢٢٥,٢٢٨,٢٣٤.

(٥) Peters, The First Crusade, p. ٢٢٥.

(٦) فوشية ، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ، ص ١٣٨-١٤١.

(٧) ريموداجيل ، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ، ترجمة حسين محمد عطية ، (الاسكندرية ١٩٨٩) ،

المؤرخ العربى بالتفرقة بين هذه الأجناس المختلفة ولكنه كان يختار الاسم الأكثر شيوعا والأكثر معرفة به وربما الأكثر أهمية للتعبير عن الجميع .

وعلى الرغم من الشهرة التى اكتسبها الفرنجة ، إلا أن أهم انجازات الحملة الصليبية الأولى تنسب إلى القادة الصليبيين من غير الفرنجة ، فإمارة الرها أسسها بلدوين البولونى ، وإمارة أنطاكية أسسها بوهمند النورمانى ، وكان أول حاكم لبيت المقدس كان جودفرى وأول ملك لها شقيقة بلدوين . ولم تتمثل انجازات الفرنجة إلا فى إمارة طرابلس التى أسسها ريمون السانجلى . المهم أن المعاصرين الأوربيين لم يروا فى الحروب الصليبية حربا للفرنجة وإنما حربا للمسيحيين أو أنها حرب المسيح ، وهذا ينفى قطريتها أو نسبتها إلى أى شعب أو جنس . كما أن الصليبيين فى وجودهم فى أراضى المسلمين فى الشرق كانوا إذا وقعوا فى ضائقة أو كانوا فى حاجة إلى العون العسكرى، كانوا يكتبون إلى البابوية ، ولم يلجأوا إلى الحكام العلمانيين فى الغرب الأوربى، بل ان مشاركة الملوك فى الحملات الصليبية كانت استجابة لطلب البابوية.

وإذا كان الغرب الأوربى قد استجاب لدعوة البابا أوربان الثانى ، فالسؤال الذى يطرح نفسه كيف كانت الحالة الذهنية لهؤلاء المشتركين؟ وكيف كانوا يفكرون وفيما كانوا يعتقدون؟ ، فهل كانت أفكارهم دنيوية أم كانت أخروية إنجيلية؟ . لقد طلب أوربان من المقاتلين أن يتركوا عائلاتهم وأصدقائهم وأوطانهم فى رحلة طولها أربعة آلاف كيلومتر إلى أرض غير معروفة لمقاتلة عدو شرس^(١). وكانت جموع العامة أسرع فى الاستجابة للخروج ، وتجمعوا وفقا للحالة الذهنية التى سيطرت عليهم بأنهم خارجون لتخليص الضريح المقدس من أيدي أعداء المسيح ، ولما كان اليهود هم قتلة المسيح ، فقد رأت بعض قوات العامة أن يبدأوا بذبح اليهود، يقول البرت الأخينى أن الحجاج قد حركتهم حالة من العنف ضد اليهود المتناثرين فى كل المدن وأوقعوا بهم مذبحه رهيبه خاصة فى مملكة لوثرنحيا وأعلنوا أن ذلك هو بداية حربهم الصليبية والعمل ضد أعداء المسيحية^(٢) . ونظرا لجهلهم بالطريق إلى القدس فقد اعتقدوا أن الله سوف يدلهم ويرشدهم إلى الطريق بواسطة بعض أدلائه ، فكانوا يسيرون خلف أوزة أعجبهم شكلها ويقولون أنها ملهمة من الروح القدس ، وثمة عنزة أخرى قالوا أيضا أنها ملهمة من الروح القدس ، واتخذوا من العنزة والأوزة دليلين فى الرحلة المقدسة إلى القدس^(٣) . ولما كان معظم المشاركين غير مسلحين فقد كانوا يتوقعون التغلب على المسلمين بالتدخل المباشر للرب وليس باستخدام الأسلحة الدنيوية^(٤).

لم تكن هذه العقائد والأفكار منتشرة بين العامة فقط ولكنها كانت راسخة أيضا عند النبلاء ورجال الدين فعندما حقق الصليبيون النصر فى معركة دوريليوم ١٠٩٧م بعد مشقة بالغة علل بطرس توديبود هذا الانتصار بالتدخل الإلهى المباشر فيقول لولا تدخل الرب معنا فى

(١) Phillips, The Crusades, p. ١٦.

(٢) Albert of Aachen, Historia Ierosolimitana, p. ٥١. See also, Ekkehard of Aura, Hierosolymita, p. ٥٤; Judith Bronstein, "١٠٩٦ and the Jews, A Historiographic Approach," JGO, p. ١٢٠.

(٣) Albert of Aachen, Historia Ierosolimitana, p. ٥٩.

(٤) Proges, The Nun Comatant, p. ٢.

هذه المعركة ولولا إرساله فرقة أخرى لإنقاذ بوهمند ما تمكن أحد من رجالنا من النجاة، لقد أدركنا بعونه العاجل وأنقذ فرسانه من الموت والوقوع في أسر العدو (١). نفس الاعتقاد نجده عند ريمونداجيل عن نفس المعركة فيقول إن البعض كان يحكى عن معجزة كبيرة رأوا فيها فارسين وسيمين في دروع لها بريق وهما يركبان أمام جنودنا ، ويبدو أن طعنات رماح الأتراك لا تؤثر فيهما، يخيفان الأعداء حتى أنهم لم يستطيعوا القتال (٢). ويقول مؤلف أعمال الفرنجة أنه ما كان لأحد من رجالنا أن ينجو هذا اليوم لولا وجود السيد معنا ، لأن الرب العظيم الحنون الرحيم لم يرض أن تهلك فرسانه أو يقعوا في الأسر (٣). وفي ضوء انتصارات الصليبيين المذهلة صاروا مقتنعين بالتدخل الإلهي لمساعدتهم ، بل وتدخل القديسين لرعاية المقاتلين ، فعندما أشدت المرض بالكونت ريمون السانجيلي يصف ريمونداجيل معجزة من تدبير السماء أدت الى شفاء الكونت(٤).

عندما وصل الصليبيون إلى أنطاكية وفرضوا عليها الحصار نفذت من عندهم المؤن وبدأوا يعانون من شدة المجاعة وهجمات المسلمين، عند ذلك تسرب اليأس إلى الجميع وأيقنوا بأن ما يقع للفرنجة من كوارث إنما بسبب خطاياهم وعدم رضاء الرب عن أعمالهم. وبعد عقد اجتماع استشاري قاموا بطرد النساء من المعسكر سواء المتزوجات أو غير المتزوجات حتى لا يغيرهن الطمع بعمل يغضب الرب (٥). حتى قصة فيروز الخائن الذي تواطأ مع بوهمند ، يرجعونها إلى التدخل الإلهي ، فيقولون بأن المسيح قد تجلى لأحد من الحراس الأتراك وأمره أن يعيد المدينة للمسيحيين ، ثم تجلى له مرة أخرى ، وفي المرة الثالثة قال للخائن : ليس لك أن تتردد لأنى أنا سيد الجميع أمرك بهذا . ومن ثم قام التركي بترتيب المؤامرة مع الصليبيين (٦).

تغيرت الأوضاع بعد دخول الصليبيين مدينة أنطاكية ، فقد وصلت قوات الأمير كربوغا، وقاموا بغرض الحصار على المدينة ، وبدا اليأس يتسرب إلى نفوس الصليبيين ، وفقدوا الأمل فى النجاة ، وكانوا فى حاجة ماسة إلى ما يعيد إليهم الثقة فادعى أحد القساوسة ويدعى ستيفن أنه رأى فى المنام المسيح وأمه مريم والقديس بطرس، ودار حوار بينه وبين المسيح ، وبعد تدخل السيدة مريم أصدر المسيح تعليماته قائلاً ، أخبر شعبي أن يرجع وسأعود أنا إليه. وبعد خمسة أيام سأمر بأعظم مساعدة ممكنة للمسيحيين (٧). كما تمثل القديس أندرو لأحد الحجاج يدعى بطرس بارثليميو وأخبره بمكان الحربة المقدسة التى جرح بها المسيح بينما

(١) توديبود ، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ، ص ١١٤ .

(٢) ريمونداجيل ، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ، ص ٧٩ .

(٣) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ص ٤١ .

(٤) ريمونداجيل ، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ، ص ٨٠ .

(٥) فوشية ، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ، ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٦) فوشية ، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ، ص ١٢٧ .

(٧) توديبود ، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ ؛ فوشية ، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ،

ص ١٣١ ، ١٣٢ ؛ أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ص ٨٠ ، ٨١ ؛ ريمونداجيل ، تاريخ الفرنجة غزاة بيت

المقدس ، ص ١٣١ ، ١٣٢ .

كان معلقا على الصليب ، وأنه لن يغلب أحد ومعه هذه الحرب ، وتعددت هذه الرؤية عدة مرات إلى أن قام بطرس بإبلاغ القادة بما رآه ، وحدد لهم مكان الحرب وتم الكشف عنها (١).

وكان لهذه الرؤى والأحلام أثر كبير في رفع الروح المعنوية للصليبيين. لأنهم كانوا يعتقدون اعتقادا راسخا في صدقها فعندما كتب الأمراء إلى البابا أوربان يبلغونه بأن أنطاكية قد خلصت لهم ، أخبروه بأنهم وجدوا الحربة التي اخترقت جنب المسيح في كنيسة القديس بطرس، ويقولون وإذا استرحنا لهذا الكشف وبفضل عدد كبير من الرؤى والأحلام المقدسة قوى ساعدنا (٢).

حتى الاستعداد للخروج لقتال قوات قربوغا لم يخل أيضا من الطابع الديني والاهتداء بالتعليمات التي وصلتهم من واقع الرؤى والأحلام ، ويصف فوشيه الاستعداد للمعركة بقوله يالها من استعدادات تغلفها التقوى (٣). ويقول المؤرخ توديبود ان هذه الإستعدادات كانت تنفيذا لتعليمات السيد المسيح بكل دقة ، كما أمرهم على لسان القس ستيفن (٤).

وفي أثناء المعركة يقال أنه اندفع من جهة الجبل جيش ضخم يمتطي أفراداه صهوه جياد بيضاء يحملون رايات بيضاء خفاقة ، وعندما شاهد الصليبيون هذا الجيش أصابهم الذهول حتى أدركوا أن هذه هي المساعدة التي وعدهم بها المسيح ، تماما كما تنبأ القس ستيفن، وكان على رأس هذا الجيش السماوى القديس جورج وديمترى المبارك وتيوير المبارك ، وأصبح هذا الأمر يقينا بعد أن رآه كثير من المسيحيين رأى العين (٥).

وهكذا صار الصليبيون على قناعة تامة بأن التفسير الوحيد لتقدمهم الظاهر هو أن يد الرب كانت تتدخل لمساعدتهم ماديا ، وأن الرب كان يوافق بالفعل على ربط الحرب المقدسة بالتوبة والحج (٦).

وهكذا فإننا أمام أنشطة وطقوس دينية ، توارت خلفها فنون الحرب والقتال والاستراتيجيات العسكرية ، وصارت المعارك تتم بالمساعدة المادية للرب وتدخل الملائكة والقديسين. وإذا كان الأمر كذلك فياترى هل خرج الصليبيون إلى الأراضي المقدسة لكي يستعيدوا الضريح المقدس وتقديم المساعدة لإخوانهم المسيحيين الشرقيين، أم أنهم خرجوا في

(١) Albert of Aachen, Historia Ierosolimitana, p. ٣١٧ Ekkehard of Aura, Hierosolymita, p. ٥٩.

فوشية ، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس ، ص ١٢٩، ١٣٠ ؛ أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ص ٨٢، ٨٣؛ ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة غزاه بيت المقدس ، ص ١٢٨، ١٣٣، ١٣٤؛ توديبود ، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس ص ٢٠٨.

(٢) فوشية ، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ، ص ١٤٠.

(٣) فوشية ، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ، ص ١٣٣.

(٤) توديبود ، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس ، ص ٢٢٩.

(٥) توديبود ، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس ، ص ٢٣٠.

(٦) عزيز سوريال ، الحروب الصليبية ، ص ٣٩.

هذه التجمعات الحاشدة لأسباب ديموجرافية واقتصادية ، بمعنى آخر هل أدت المجاعة والتضخم السكاني إلى الخروج بهذه الأعداد في حركة استعمارية تهدف إلى الاستقرار على بعد أربعة آلاف كيلومتر، وهل يمكن الترتيب لحرب استعمارية دون رعاية الممالك العلمانية صاحبة الجيوش النظامية في غرب أوروبا، الواقع أن ملوك أوروبا الكبار كانوا ثلاثة ، هم الإمبراطور الألماني هنري الرابع ووليم روفس ملك إنجلترا و فليب الأول ملك فرنسا وجميعهم كانوا محرومين من الكنيسة ولذلك لم يكن لهؤلاء الملوك أية مساهمة عسكرية أو مالية أو تنظيمية في إعداد جيوش الحملة الصليبية الأولى.

أما الإقبال الشديد على المشاركة في الحملة فلم يكن بسبب الانفجار السكاني في أوروبا، حيث لم يكن لدى أوروبا في ذلك الوقت مستودع للقوة البشرية يمكن الاستفادة منه في نهاية القرن الحادي عشر. ولذلك فإن الآراء التي تعزو الحروب الصليبية إلى النمو السكاني في أوروبا غير مقنعة لأن فائض إنتاج الأرض من المحاصيل كان يوفر الطعام لجميع السكان (١) . وكانت البابوية في بداية الحروب الصليبية هي الراعي الروحي للصليبيين ، تقدم لهم الغفران وتمنحهم بعض الامتيازات المعنوية ، ولكن هل تكلفت البابوية باعداد المحاربين ومساعدتهم ماديا. الحقيقة أن البابا أوربان الثاني طلب من المقاتلين الاستعداد ولكنه لم يحدد كيفية ذلك ، ولكن البرت الأخيني يقول أنه عند السماع بالمهمة الإلهية تعاهد المشاركون على القيام بالحملة إلى الضريح المقدس على نفقتهم الخاصة (٢) ، أما من أعوزه المال فإن الرحمة الإلهية تعينه (٣) لأن تكلفة الخروج في الحملة الصليبية كانت باهظة ، لشراء الدروع والخيول والمؤن لفرد واحد كانت تتكلف مبلغا ضخما بما يساوي دخل الفارس العادي لمدة أربع سنوات (٤) .

ولذلك فقد لجأ الفرسان والأمراء من أجل تدبير النفقات إلى بيع الأراضي أو البضائع وتورطوا بشكل كبير في الديون من خلال القروض أو الرهون العقارية (٥). وهي الإجراءات التي أفقرت العائلات بشدة (٦). وتوجد بعض الأمثلة الدالة على اللجوء إلى الرهن أو البيع. ففي ابريل سنة ١٠٩٦ قام اكراد المونتيرللي Achard of Montmerle برهن ممتلكاته إلى الدير البورجندي الكبير في كلون مقابل الفين من الشلنات الليونية Lynos واربعة بغال حتى يتمكن من تحقيق نذره في الانضمام للحملة إلى بيت المقدس للقتال في سبيل الرب (٧). أما الأمراء البارزين فنجد جودفري البويوني يقوم ببيع ضياعة الواقعة على نهر ميوز ويرهن قلعته

(١) يوشع براور ، الاستيطان الصليبي في فلسطين ، ص ١٤ ، ١٥ .

(٢) Albert of Aachen, Historia Ierosolimitana, p. ٩.

(٣) Albert of Aachen, Historia Ierosolimitana, p. ١٧.

(٤) Phillips, The Crusades, pp. ١٨, ١٩; France, The Crusade and the Expansion, p. ٥٢; Riley-Smith, The First Crusaders, p. ١١٢.

(٥) Flori, Ideology and Motivations, p. ٢٩; Tyerman, Were there Any Crusades, p. ٥٧٢; Evans, Commutation of Crusade Vow, p. ٢٢٣.

(٦) Flori, Ideology and Motivations, p. ٢٩; Tyerman, Fighting for Christendom, p. ١٣٨.

(٧) France, The Crusade and Expansion, p. ٥٣; Christopher Tyerman, Gods War, A New History of the Crusades (Penguin Books ٢٠٠٧) p. ٢٧.

في بولون ليتمكن من تجهيز جيشه (١) وجمع جودفري بعض المال من اليهود في أراضيه وأعلن بمجرد حمله للصليب أنه سيبدأ حربه الصليبية للثأر من أعداء الرب في الوطن قبل أن يبدأ رحلته عبر البحار للبحث عنهم في الخارج (٢) كذلك قام ريموند امير تولوز ببيع بعض أراضيه أو رهنها لتوفير المال اللازم لحملة (٣).

اما روبرت دوق نورماندى فقد اضطر إلى رهن دوقيته عند أخيه وليم الثانى روفوس ملك انجلترا في مقابل عشرة آلاف مارك فضى (٤). وهكذا نجد أن تدبير نفقات الخروج في الحملة الصليبية سواء على مستوى الأفراد أو الأمراء، كان أمرا شديداً الوطأة. وعندما بدأ الملوك بالمشاركة في الحروب الصليبية كانت التكلفة أيضاً كبيرة . ومع أنه لا يمكن حصر المبالغ التي تم إنفاقها على أية حملة ، إلا أن السجلات تحتفظ بتكاليف حملة لويس التاسع الأولى ١٢٤٨/١٢٥٤م بقيمة مليون وخمسمائة وسبعة وثلاثين ألفاً وخمسمائة وسبعين جنيهاً تورياً . وهذا المبلغ يساوى أكثر من دخله السنوى البالغ ٢٥٠ ألف جنية بست مرات (٥).

وهذا يبين أن تكلفة الإعداد للخروج في حملة صليبية كانت باهظة التكاليف على مستوى الأفراد العاديين أو الأمراء ، حتى الملوك ، ولذلك فلا غرابة في أن التمويل كان على الدوام مصدر قلق بالنسبة للصليبيين على كل المستويات الاجتماعية .

وفي ضوء هذه الأدلة يصعب تصديق أن معظم الصليبيين كانوا مدفوعين بالأطماع المادية ، لأن التخلص من الممتلكات والعقارات للاستثمار على المدى البعيد للاستيطان في الشرق يمكن أن تكون مغامرة تتسم بالغباء (٦).

ويقدر أحد المؤرخين أعداد الصليبيين الذى خرجوا في الحملة الصليبية الأولى بحوالى مائة الف شخص من جميع الطبقات الاجتماعية استجابة للجاذبية الدينية القوية للحملة الصليبية (٧). وبعد نجاح الحملة في الاستيلاء على بيت المقدس والوفاء بنذرهم عاد معظم الصليبيين إلى أوروبا بمجرد انتهاء الحملة ، وأنه في خريف سنة ١٠٩٩ تجمع في ميناء اللاذقية ٢٠ ألف في طريق عودتهم إلى الوطن (٨).

(١) Lloys, the Crusading Movement, p.٥٥; Ronald P. Grossman, Financing of the Crusades, PHD, (the University of Chicago, ١٩٦٥) pp. ٣١, ٣٢.

رنسمان، الحملات الصليبية ، ج ١ ، ص ٩٧.

(٢) Grossman, The Financing of The Crusades, pp. ٣٠, ٣١.

(٣) Grossman, The Financing of The Crusades, p. ٣٣.

رنسمان ، الحملات الصليبية ، ج ١ ص ٢١٠.

(٤) Evans, Commutation of Crusade Vow, p. ٢٢٣; France The crusade and expansion, p.٥٣; Lloyel, The Crusading Movement, p. ٥٥; Tyerman, Fighting For Christendom, p. ١٤٠; Grossman, The Financing of the Crusades, p. ٣٦.

(٥) LLoyd, The Crusading Movement, p. ٥٣.

(٦) France, The Crusade and the expansion, p. ٥٢.

(٧) France, The Crusade and the expansion, p.٥٠.

(٨) Riley-Smith, The First Crusaders, p. ١٩.

وهناك أدلة قليلة للغاية على أن المشاركين في الحملة الصليبية الأولى قد عادوا إلى بلادهم أثرياء بعدما تحملوا النفقات الباهظة التي تطلبتها الحملة (١). بل أن بعضهم فقد ممتلكاته التي قام برهنها أثناء الاستعداد للمشاركة، مثال ذلك روبرت النورماندى الذى فقد دوقيته التي كان قد رهنها عند أخيه وليم الثانى روفوس ملك إنجلترا، بسبب مشاركته في الحملة الصليبية (٢). ويقول ريلى سميث أنه قام بحصر عدد ٧٩١ فردا ممن حملوا الصليب، لم يستقر منهم فى الشرق بعد فتح القدس إلا ١٠٤ على الأكثر (٣). أما رنسمان فيقول أنه بعد موقعة عسقلان، عسقلان، أغسطس ١٠٩٩م قرر كل من روبرت النورماندى وروبرت كونت فلاندر مغادرة فلسطين، فكل من دوق نورماندى ودوق فلاندر يتلطف إلى العودة إلى الوطن، وكل منهما يعتبر أنه قام بواجبه المسيحى وبذا يكون قد أوفى بعهده، وطلب منهما جودفرى ألا يدخرا جهدا لدى وصولهما إلى أوربا فى حث الجنود على الخروج إلى الشرق للحرب من أجل الصليب، وذكرهما بمدى الخطورة التي تحق بالباقيين فى الأرض المقدسة (٤).

وهذا يوضح أن من استقروا فى الأرض المقدسة بعد الفتح كانت أعداد قليلة من الصليبيين، وأن الباقيين قد عادوا مرة أخرى إلى أوربا، ويقدر البعض الأعداد التي استقرت فى مملكة بيت المقدس بعد سنة ١١٠٠ بأنها كانت حوالى ٣٠٠ فارس وحوالى ١٢٠٠ من المشاة (٥). وعانت المملكة من ضعف الاستيطان وعلى الرغم من أن المقاتلين والحجاج كانوا يأتون بكثرة للأرض المقدسة فلم تكن هناك جاذبية للاستقرار والاستيطان بفعالية لأن الضغط السكانى فى الغرب لم يكن كافيا لتوفير ما يكفى من الرجال الذين يستقرون فى الأرض المتاحة فى الشرق (٦).

أما القول بأن ما تحمله الحملة الصليبية الأولى من أحداث اتسمت بالقسوة والوحشية إنما يتناقض مع الصليب رمز الفداء والتضحية بالنفس فى سبيل الآخرين، ولم يكن الصليب أبدا رمزا للقتل والحرب والدمار (٧). فإن وجهة نظر البابا أوربان الثانى الداعى للحرب الصليبية لا تتناقض مع القول السابق لأنه دعا المشاركين فى الحرب إلى التضحية بالنفس فى سبيل نصرته اخوانهم المسيحيين الشرقيين واسترداد الضريح المقدس، ومن ثم فإن ما يراه الجانب المسلم فى الحملة الصليبية على أنها عدوان وسفك دماء، يراها الجانب الصليبي على أنها تضحية وقربان للرب. ومع ذلك فإنه يجب أن نتعرف على موقف الكنيسة من الحرب

(١) Riley-Smith, The state of Mind, p. ٧٤.

(٢) Evans, Commutation of Crusade Vow, p. ٢٢٣.

(٣) Riley – Smith, The First Crusaders, p. ١٩.

(٤) رنسمان، الحملات الصليبية، ج ١ ص ٣٥٦.

(٥) Cowdrey, The Genesis of the Crusades, p. ١٤.

وثمة رأى آخر يقول بأن حوالى ألفى فارس وأرستقراطى قد كتبت لهم النجاة من أحداث الحملة الصليبية، وكان عليهم الاستقرار فى الشرق للاحتفاظ بالأراضى التي فتحوها، وأن ما يقرب من نصف هؤلاء هم الذين قرروا البقاء، فقد غادر البعض إلى الديار فى وقت لاحق.

France, The Crusade and the Expansion, p. ٥٦.

(٦) Cowdrey, The Genesis of the Crusades, p. ١٤.

(٧) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص ٩.

والعنف. وهل كانت الكنيسة ثابتة على موقفها أم أن رؤيتها ومواقفها كانت تتغير من آن لآخر وفقا لمقتضيات الدفاع عن الدولة ومصالح الكنيسة .

ويرى كثير من المؤرخين أن بالكتاب المقدس بعهدية القديم والجديد تناقض وعدم وضوح بالنسبة للموقف من الحرب واستخدام العنف^(١) . فقد تعاملت التوراه مع مشكلة الحرب بشكل غامض إلى حد ما ، فتارة تصف النصوص التوراتية الحرب كعقاب لشعب اسرائيل على خطاياهم التي ارتكبوها وعصيانهم وبعدهم عن عبادة الرب ، فيحتدم غضب الرب ضد شعبه ويسلط عليهم أعداءهم ويتركهم فريسة للهزيمة والخضوع^(٢) ولكن نصوص توراتية أخرى تحدثت عن الحرب بعبارات أكثر ايجابية ويتم وصف الرب بأنه صاحب الانتصار فى الحرب. النصر الذى منحه يهوى لشعبه عندما كان راضيا عنهم^(٣). وهذا يعنى أن الحرب هى حرب الرب سواء كانت فى صالح بنى اسرائيل أو ضدهم، هو الذى يحقق الانتصار ويأمر بالهزائم ، ثم أن هناك نصوصا أخرى فى العهد القديم تحرض على ممارسة العنف ، العين بالعين والسن بالسن والنفس بالنفس ويد بيد^(٤).

وكانت معالجة الحرب والعنف فى العهد الجديد متناقضة أيضا إذ تحدث القديس بولس بطريقة العهد الجديد عن الرب باعتباره صانع النصر وإله السلام^(٥) . على أية حال كان النفور من العنف أكثر تأكيدا فى العهد الجديد ، ويتجلى ذلك فى موعظة السيد المسيح على الجبل التى تحمل أسمى آيات الحب والتسامح والسلام ، وتعد ثورة على المفاهيم اليهودية الداعية إلى استخدام العنف ، حيث قال لتلاميذه " وسمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن ، أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بمثله ، بل من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الخد الآخر " ^(٦) ويقول لهم أيضا عيشوا فى سلام مع جميع الناس^(٧) ، ولا تردوا لأحد شرا مقابل شر^(٨).

(١) حاول البابا انوسنت الثالث تقديم الأدلة والبراهين على أن الأرض المقدسة مملوكة للمسيحيين من ناحية العدل والشرعية ، فقد صارت مقدسة لأن المسيح عاش فيها ، ثم صارت ضمن الإمبراطورية - ونظرا لاعتبار هذا البابا نائبا للمسيح ووريثا للأباطرة فقد أعاد التأكيد على حق المسيحيين فى السيادة والحكم والتشريع والتملك فى فلسطين. وأن الحروب الصليبية فى الشرق هى مجرد عملية استرداد لإقليم تابع للعالم المسيحى من ناحية العدل والشرعية .

رايلى سميث ، ماهى الحروب الصليبية . ص ١٤ ، ١٥ .

(٢) أنظر العهد القديم ، سفر القضاة ، ٢ : ١٤ ، ٣ : ٨ ، ٤ : ١-٢ ؛ ٦ : ١-٢ ، ١٠ : ٦-٩ ؛ سفر أشعيا ، ٥ :

٢ (٤) سفر أرميا ، ٥ : ١٤-١٩ ، ٧ : ١٠-١١ ؛ سفر حزقيال ، ٢٥ : ١٧ .

(٣) Brundage, Holy War and Medieval Lawyers, p. ١٠٠, ١٠١; Gilchrist, Papacy and War, p. ١٨٧.

(٤) انظر العهد القديم ، سفر الخروج ، ٢١ : ٢٣-٢٤ ؛ سفر التثنية ، ١٩ : ٢١ ؛ سفر اللاويين ، ٢٤ : ٢٠ .

(٥) أنظر العهد الجديد ، كورنثيه ١ ، ١٥ : ٥٧ ، كورنثيه ٢ ، ١٣ : ١١ ؛ روما ، ١٥ : ٣٣ .

(٦) انجيل متى ، ٥ : ٣٨-٤٨ .

(٧) الرسالة الى مؤمنى روما ، ١٢ : ١٨ .

(٨) الرسالة الى مؤمنى روما ، ١٢ : ١٧ .

أما موقفه من القتال واستخدام السيف فتتضح في حديثه عندما استل أحد تلاميذه سيفه للدفاع عن المسيح ، قال له " رد سيفك إلى غمده فإن الذين يلجأون إلى السيف بالسيف يهلكون" (١) وهكذا يبدو من البداية أن المسيحية كانت تعارض أعمال العنف ، وأنه لا يمكن لأي مسيحي أن يكرس نفسه طواعية للشئون العسكرية (٢) . وهكذا يتم النظر إلى العهد الجديد على أنه مسالم بشكل أساسي ، ومع ذلك فإنه يحمل قول المسيح " لا تظنوا أني جئت لأرسي سلاماً على الأرض ، ما جئت لأرسي سلاماً بل سيفاً " (٣). وعلى الرغم من هذا التناقض فإن العهد الجديد لا يهتم بالعنف . وكانت الكنيسة الأولى حريصة على أن يتم النظر إلى أعضائها على أنهم رومان صالحون (٤) . إلا أنها كانت مناهضة للخدمة في الجيش (٥) مع أن الانخراط في الجيش والمشاركة في حروب الإمبراطورية لم يسبب أية مشكلة للمسيحيين الأوائل ، لأن الجيش الروماني كان جيشاً محترفاً. ولم يكن التجنيد إجبارياً ، ولذلك انصرف المسيحيون إلى التبشير بالإنجيل . وخلال الفترة الطويلة من العمل السري للكنيسة حتى سنة ١٨٠م ، لم يكن المسيحيون بصفة عامة يتم تجنيدهم في الجيش الروماني طالما أن الإمبراطورية لم تكن في خطر (٦) . ولكن الأمور تغيرت وتعقدت بعد وفاة الإمبراطور ماركوس أوريلوس (١٦١-١٨٠) Marcus Aurelius ، وصارت الحدود الرومانية مهددة بشكل خطير من الخارج ، ومن ثم فقد واجه المسيحي السؤال الأخلاقي الخطير عما إذا كان يجب عليه أن يخدم كجندي في الحفاظ على حدود إمبراطورية يحكمها إله وثني ، وحتى ذلك الوقت كانت كل العوامل تثني المسيحي عن التطوع في الجيش (٧).

وظهر في تلك الفترة الكتاب المسيحيون الذين تعاملوا مع هذا الموضوع بحكمة وإحساس بأهميته بالنسبة للمسيحيين ، فقد أكد ترنتيان (١٦٠-٢٧٠م) على التعارض القانوني ما بين المذهب المسيحي والخدمة في الجيش الروماني ، فالمسيحي لا يستطيع أن يخدم معلمين ؛ الله والشيطان ، فالجندي يحمل السيف الذي حظره يسوع على تلاميذه (٨) . أما أوريجين (١٨٥-٢٥٤م) فإنه لم يوافق على تطوع المسيحيين للدفاع عن الإمبراطورية ، وكان يقول بأن القتال الذي يقوم به جنود الإمبراطورية قتال عادل ، لكن لا يترتب على المسيحيين التطوع فيه (٩) . ويرى هيبوليتس Hippolyte (١٧٠-٢٣٠) أنه ليس ثمة أي توافق بين الدين

(١) انجيل متى ، ٢٦ : ٥٢ .

(٢) Brundage, Holy War and Medieval Lawyers, p. ١٠١ .

(٣) انجيل متى ، ١٠ : ٣٤ .

(٤) France, Urban II and the Impact, p. ٧٥ .

(٥) فلوري ، الحرب المقدسة ، ص ٢٣

(٦) Draper, Just War Tradition, p. ٨٤ .

فلوري ، الحرب المقدسة ، ص ٢٣ .

(٧) Draper, Jus War Tradition, p. ٨٥ .

(٨) فلوري . الحرب المقدسة ، ص ٢٤ .

Draper, Just War Tradition, p. ٨٦ .

(٩) فلوري . الحرب المقدسة ، ص ٢٤ ، ٢٥ .

المسيحي والخدمة في الحروب^(١). وهذه الكتابات إنما كانت تعبر عن الرأي العام المسيحي في في تأييده لموقف الكنيسة الراض لتجنيد المسيحيين في الجيش الروماني .

إن التحول المفاجئ الذي طرأ على الإمبراطورية الرومانية عندما تم الاعتراف بالديانة المسيحية ديانه شرعية سنة ٣١٣ م ، ثم بعد ذلك ديانه رسمية للإمبراطورية في سنة ٣٨١م قد غير جذريا من علاقة الدولة بالكنيسة ومن موقف الكنيسة من الحرب ، فقد كان من الصعب على الكنيسة أن تتمسك بوجهة نظر وممارسة أخلاقية لم يتم تحديدها بوضوح ، والتي ينظر إليها الإمبراطور على أنها عدم ولاء لشخصه ، ومن ثم أصبحت المسيحية الرسمية ملزمة باقرار الحرب كلما احتاجت الدولة أن تخوضها^(٢). وقامت الكنيسة بتقديم الدعم الفوري للإمبراطورية في مجمع آرل سنة ٣١٤م، فقد هدد المجلس بانزال الحرمان الكنسي على أي جندي يرفض الخدمة في وقت السلم^(٣) ، وتم التأكيد على ذلك في مجمع نيقية سنة ٣٢٥م^(٤).

٣٢٥م^(٤).

كان التطور الطبيعي للأحداث بعد مرسوم ميلان ٣١٣م والانتقال الكبير إلى قبول المسيحيين لمبدأ الحرب والانخراط في المؤسسة العسكرية ضد ماكان ينادى به ترتليان وأوريجين وكلمنت السكندري^(٥)، أن بدأ آباء الكنيسة الغربية بحلول القرن الخامس في مواجهة تناقض الكتاب المقدس بشأن العنف ومحاولة تبريرها^(٦) وساعدهم على ذلك ما حل بالإمبراطورية من كوارث في بدايات القرن الخامس ووقوع روما سنة ٤١٠ فريسة في أيدي القوط الغربيين ، وتعالى الأصوات بأن المسيحية ومبادئها المسالمة والابتعاد عن خدمة الدولة أو الإنخراط في الجيش هما السبب فيما حل من كوارث وهزائم . ومن ثم كان منطق شيشرون وغيره من الفلاسفة عن الحرب العادلة ، جاهزا للاستخدام من جانب الفلاسفة المسيحيين وعلماء القانون واللاهوت^(٧) وكان أبرزهم القديس أوغسطين الذي لجأ إلى المعتقدات والتعاليم والتعاليم المسيحية لتبرير مشاركة المسيحيين في جيوش الإمبراطورية ، وإيجاد المبررات لممارسة نوع جديد من الحرب تتصف بالشرعية أي أن تكون حربا عادلة ، مشيرا إلى أن ما قاله المسيح برفض العنف ، هو مبدأ فيما يتعلق بإعداد القلب وليس فيما يتعلق بالأداء المرئي للفعل ، وهذا يعنى أنه عند الضرورة يمكن السماح بممارسة العنف حتى عندما يكون من الضروري ارتكاب أعمال القتل^(٨).

(١) فلورى. الحرب المقدسة ، ص ٢٥.

(٢) Draper, Just War Tradition, p. ٨٧.

(٣) فلورى. الحرب المقدسة ، ص ٣٧.

(٤) France, The Crusade and the Expansion, p. ٤٠.

(٥) Draper, Just War Tradition, p. ٨٧.

(٦) Brundage, Holy War and Medieval lawyers, p. ١٠١.

(٧) Berit Van Neste, Cicero and St-Augustineis Just War Theory, MA, (University of South Florida ٢٠٠٦), p. ١٥.

(٨) Cain Daniel O'Driscoll, The Just War Tradition and systemic change: The Rights Revolution and International Society, MA (Dalhousie University ٢٠٠٢) p. ٣٣.

إن تصور أوغسطين (٣٥٤-٤٣٠) بأن الله هو صانع الحروب أو على الأقل بعضها استنادا لما جاء في العهد القديم بأن تحدث مباشرة إلى شعبه وأوحى بالحروب بشكل مباشر، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه الحرب المقدسة . أى أن الحرب كانت مقدسة لدرجة أنه يمكن القول أنها موحى بها من الله ويوافق عليها (١). ومن ثم فإن الحرب التي تعلنها السلطات الشرعية يمكنها فقط أن تبلغ درجة ما من الشرعية، فهي حق إن أدت خدمة للعدالة (٢).

وهكذا نجد أن أوغسطين قد قام بدمج أفكار فلاسفة اليونان والرومان للأسباب العادلة والغايات بالتصور المسيحي بالمقصد العادل الصحيح ، كما وافق القانونيون الرومان على أن الحرب العامة يجب أن تؤديها السلطة (٣).

وانتهى أوغسطين بالتمييز بين الحروب العادلة والحروب غير العادلة فقد حلل عدالة الحرب من حيث أربعة معايير أساسية، فيجب أن يكون إعلان الحرب من قبل سلطة شرعية ، ويجب أن يكون هناك سببا عادلا ومقبولا أخلاقيا للحرب ، ويجب أن تكون الحرب ضرورية أى لا بديل لها ، ويجب خوض الحرب بوسائل مقبولة (٤) وقد أعطت صياغة أوغسطين للحرب العادلة المبررات التي كانت تحتاجها الكنيسة للموافقة على استخدام العنف والمشاركة في الحروب التي كانت تتحفظ عليها من قبل . وعلى الرغم من أن الحرب العادلة كانت تضع قيودا على الحروب وتمنع الكهنة من حمل السلاح ، فإن المشاركة في الحروب وسفك الدماء وحمل السلاح من أجل تحقيق مقاصد الرب قد مالت إلى تجاوز كل العقبات والتخلص من جميع القيود (٥). ومع ذلك لم تستطع العقيدة الأوغسطينية للحرب العادلة أن تتجذر على الرغم من موجات الغزو والاستيطان للشعوب الجرمانية داخل الإمبراطورية (٦) ولكن مع قيام الدولة الكارولنجية وجهودهم في قتال المجيار والاسكندنافيين والمسلمين ، فقد تم تصوير الحروب الكارولنجية بحروب العبرانيين المقدسة ، ووصفوا الإمبراطور بأنه استطاع أن يقود جيشه إلى النصر ، شأنه شأن ملوك بني إسرائيل. إن دفاع شارلمان عن الكنيسة وتحالفه معها هو الذي أدى إلى ظهور الحرب المقدسة المسيحية (٧).

لم تكن البابوية نفسها متورطه بشكل مباشر في التنظيم النشط وتوجيه الجيوش حتى القرن التاسع ، حتى عندما واجهت مشكلة الدفاع عن أراضيها ضد هجمات المسلمين في وسط إيطاليا، وقدم كل من البابا ليو الرابع (٨٤٧-٨٥٥) والبابا يوحنا الثامن (٨٧٢-٨٨٢) الخلاص

(١) France, The Crusade and the Expansion, p. ٤٠.

فلورى ، الحرب المقدسة ، ص ٤١ ، ٤٢ .

(٢) France, The Crusade and the Expansion, p. ٤٠.

فلورى ، الحرب المقدسة ، ص ٤٣ .

(٣) Tyerman, God's War, pp. ٣٢-٣٤; Van Neste, Cicero and St-Augustin, p. ١٥.

(٤) Brundage, Holy War and Medieval Lawyers, p. ١٠٢; O' Driscoll, The Just War Tradition, pp. ٣٤, ٣٥; Tyerman, God's War, p. ٣٤; France, The Crusade and the Expansion, p. ٤٠.

(٥) ماستناك ، السلام الصليبي ، ص ٩٨ .

(٦) Gilchrist, The Papacy and War, p. ١٧٤.

(٧) ماستناك ، السلام الصليبي ، ص ١٠٤ .

المشاركين والغفران لكل من يحارب ويموت في الحرب دفاعا عن الكنيسة (١). ولكن أدى تدهور البابوية في القرن العاشر إلى انحسار دورها المركزي في الحرب المقدسة. وقد اتفق المؤرخون على أن باباوات الإصلاح في القرن الحادي عشر بدءا من ليو التاسع (١٠٤٩-١٠٥٤) قد تخلوا عن تحفظهم ضد الحرب وأظهروا من جديد نشاطهم في الدفاع عن حقوق الكنيسة (٢). ولم تكف الكنيسة بتقديم بركاتهما للمقاتلين ولكنها صارت أيضا تقوم بمباركة الفرسان وأسلحتهم من أجل تكريسهم للدفاع عن الدين والممتلكات الكنسية، وذلك من واقع الفكرة القائلة بأن الأسلحة التي توجه للاستخدام السليم، يجب أن يتم مباركتها، وأنه باستخدام الفرسان المكرسين لتلك الأسلحة المباركة يصيرون مرضيا عنهم أمام الرب (٣).

وقد ترجم البابا ليو التاسع هذه العقيدة عندما قام بنفسه بقيادة جيش كان معظمه من الألمان ضد النورمان في جنوب إيطاليا ولكن لحقت به الهزيمة في معركة تشيفيتاني في يونيو سنة ١٠٥٣م، وتشكل هذه الحادثة معلما هاما على الطريق المؤدى إلى إعداد مفهوم الحرب المقدسة في الغرب الأوربي، فقد اتقنت في ذلك التاريخ قدسنة القتال المنجز من أجلها وتقديس من يفقدون حياتهم في هذا النوع من الحروب زودا عن الكنيسة والبابوية. فقد أعلن البابا بعد ذلك أن الذين قتلوا في هذه المعركة قد ماتوا شهداء (٤).

ولكن التغيير الجذري في السياسة البابوية تجاه الحرب قد حدث في عهد البابا جريجورى السابع أكثر الباباوات خوضا للحروب حتى قيل عنه أنه أحدث ثورة في النظرة المسيحية للحرب، وأنه كان المخترع الرئيسى لفكرة الحرب المقدسة في العالم المسيحي في العصور الوسطى (٥). وكان يجد في نصوص العهد القديم ما يناسب ميوله وطبيعته ويشجعه دائما على ممارسة العنف وخوض الحروب. وكانت أكثر الفقرات المحببة إليه ما جاء في سفر إرميا " ملعون من يقوم بعمل الرب متهاونا وملعون من حظر على سيفه الدم " (٦). كما يوصف جريجورى أيضا بأنه أحد أسلاف الحملة الصليبية التي جسدت الحرب المقدسة في أكثر أشكالها تميزاً في العصور الوسطى، لأنه في الوقت الذي تمت فيه الدعوة للحرب الصليبية في كليرمونت ١٠٩٥، كانت الحرب المقدسة في طريقها لأن تصبح عنصرا أساسيا في السياسة البابوية والخطاب الدينى في الغرب (٧). وكان الدور العسكرى الملموس للبابا جريجورى السابع هو قيامه بتكوين قوة عسكرية خاصة للدفاع عن الكنيسة ومصالحها، دعا إليها الفرسان من جميع أرجاء الغرب الأوربي أطلق عليهم اسم جيش القديس بطرس أو جيش المسيح، لأن

(١) Tyerman, God's War, p. ٣٨; France, The Crusade and the Expansion, p. ٤٢.

(٢) Gilchrist, The Papacy and War, pp. ١٧٥, ١٨٤.

(٣) Brundage, Holy War and Medieval Lawyer, p. ١٠٤; Flory, Ideology and Motivations, p. ١٦; Gilchrist, The Papacy and War, pp. ١٧٥, ١٧٦.

(٤) فلورى الحرب المقدسة، ص ١٨٠، ١٨١.

France, Urban II and the Impact, p. ٨٤; Treyman, God's War, p. ٤٦; Cowdrey, War as path to salvation, pp. ١١, ١٢.

(٥) Brundage, Holy War and Medieval Lawyers, p. ١٠٤.

(٦) Gilchrist, The Papacy and War, p. ١٨; Tyerman, God's War, p. ٤٧.

العهد القديم، سفر إرميا، ٤٨ : ١٠.

(٧) Brundage, Holy War and Medieval Lawyers, p. ١٠٥.

الخدمة أو الحرب في سبيل القديس بطرس تتحول من خلاله إلى حرب في سبيل المسيح (١). وكان الفرسان وكبار العلمانيين الذين يؤازرون البابا ويساعدوه في شتى نزاعاته ، تهبهم السدة الرسولية الوعد بالحماية المادية في الحياة الدنيوية وثوابات روحية في دار الآخرة حيث الخلاص وغفران الذنوب (٢).

وتكمن أهمية الحرب المقدسة في أن الحرب القائمة على التبرير بسبب الاختلاف الديني يوفر على المستوى الأيديولوجي إمكانية غير مقيدة للجوء إلى العمل العسكري ، حيث يمكن بدء الحرب بشكل تعسفي وتبريرها ضد أى جهة أو شخص بوصفه عدو للدين (٣) . ومن ثم يمكن اعتبار فكرة الحرب المقدسة متوافقة أيديولوجيا مع مفهوم الحرب المطلقة لأنها تحفز وتبرر شن حرب غير محدودة من أجل الانتصار النهائي لدين المرء على أتباع الديانات الأخرى (٤) . وعلى الرغم من عدم وجود نظرية موحدة للحرب لدى الباباوات ، إلا أنهم وضعوا حروبهم في السياق الأيديولوجي للحرب الإلهية القائمة على أسس في الكتاب المقدس (٥) .

ظلت البابوية تمارس أسلوب الحرب المقدسة في مقاومة خصومها وتحقيق مصالحها ، وقدمت المكافآت الروحية لإغراء الفرسان والمقاتلين ، ومع ذلك لم يكتمل الإطار العام للحرب المقدسة ، فلا يوجد هدف استراتيجي واضح لهذه الحرب ، كذلك لا يوجد هيكل تنظيمي أو إطار ثابت للمكافآت الروحية ، أو بمعنى أدق لا توجد ماهية واضحة للحرب المقدسة ، على الرغم من الدور البارز للبابا جريجورى السابع ، واستمر الأمر كذلك إلى أن اعتلى أوربان الثانى عرش البابوية وكانت فكرة الحرب المقدسة في طريقها لأن تصبح عنصرا أساسيا فى السياسة البابوية والخطاب الدينى فى الغرب ، ولذلك كانت المساهمة الأساسية لأوربان هى الجمع بين عدد من الأفكار المقبولة والشائعة مثل حسنات الحج وثوابات الحرب المقدسة ، وغفران الذنوب والوعد بالحماية والثواب من عند الله (٦) ، وصياغتها فى شكل كيان جديد ، حقق نجاحا مذهلا ، كان هذا الكيان المؤسسى الجديد هو الحملة الصليبية (٧) .

وهكذا كانت البداية فى تحويل الحرب الصليبية إلى نوع من الحرب المقدسة هو خطاب البابا أوربان الثانى فى كليرمونت الذى منح ظاهرة الحروب الصليبية سماتها الدينية الحاسمة ، مبررا دعوته إلى الحرب بأنها أمر من الله. وبذلك فقد تطور مفهوم الحرب الصليبية إلى مفهوم

(١) Cowdrey, War as path to Salvation, p. ١٢; Tyerman, God's War, p. ٤٧

(٢) Cowdrey, War as path to Salvation, p. ١٧; Tyerman, God's War, p. ٤٨.

فلورى ، الحرب المقدسة ، ص ١٨٣.

(٣) Stouraitis, Just War and Holy War, p. ٢٣٢.

(٤) Stouraitis, Just War and Holy War, p. ٢٣٣.

(٥) Gilchrist, The Papacy and War, p. ١٧٩.

(٦) فلورى ، الحرب المقدسة ، ص ٢٤٥.

(٧) Porges, The Nun Combatant, p. ١; Charanis, Aims of the Medieval Crusades, p. ١٢٣; Brundage, Holy War and Medieval Lawyers, p. ١٠٥; Price, The Crusading Vow, p. ٩.

عام للحرب من أجل الدين ، والذي تم استخدامه على مدار التاريخ لتبرير الحرب على أسس دينية من أجل حماية الدين المسيحي والمسيحيين^(١).

وثمة رأى آخر يقول بأن البابا أوربان الثانى قد أضاف إلى ايديولوجية الحرب المقدسة بعدا مقدسا جديدا مستمدا من الأهداف المميزة للحملة الصليبية وتحرير القدس والأماكن المقدسة، هذا البعد الجديد يفسر نجاح أوربان الهائل فقد تم تحويل الحرب المقدسة العادية إلى حرب أقدس؛ هي الحملة الصليبية التي سيطرت ايديولوجيتها على العقل الغربى لعدة قرون^(٢) . فقد ذهبت أيديولوجية الحرب الصليبية إلى ما هو أبعد من أيديولوجية الحرب المقدسة التي نشأت عنها^(٣) لأن الطقوس والأطر التي يتم بموجبها الانضمام إلى الحملة الصليبية قد خلقت نوعا من الحرب المؤسسية التي ميزت الحروب الصليبية عن الحروب المقدسة^(٤) . وهكذا تحولت الحرب الصليبية إلى مؤسسة كنسية تعمل في خدمة الكنيسة والبابوية^(٥).

وهكذا يتضح أن الكنيسة فى القرون الثلاثة الأولى كانت تؤمن بالمحبة والتسامح ونبذ العنف ، وصارت كارهة للحرب ومشاركة المسيحيين فى جيوش الإمبراطورية الوثنية وعندما تم الاعتراف بالديانة المسيحية رأت الكنيسة أن من واجبها تأييد الدفاع عن الإمبراطورية المسيحية ، وتبرير ذلك وفقا لنظرية الحرب العادلة التي صاغها أوغسطين فى القرن الخامس . ومع تطور الأمور السياسية ، وصار للبابوية مصالح وممتلكات يجب الدفاع عنها تطورت نظرة البابوية للحرب، وصار الباباوات يجندون الجيوش وقيادتها بأنفسهم ، واعتبروا أن الحرب فى الدفاع عن مصالح البابوية والكنيسة حربا مقدسة ، وهى حرب قائمة على التبرير الدينى ، يدعو إليها خليفة القديس بطرس ويمنح الغفران للمشاركين. وظلت البابوية تمارس نظرية الحرب المقدسة فى مقاومة خصومها، ومع ذلك لم يكن للحرب المقدسة هدفا معلنا أو تنظيما واضحا إلى أن جاء البابا أوربان الثانى فوضع هدفا دينيا للحرب يتمثل فى استعادة الأرض المقدسة وتخليص الضريح المقدس ، ومنح المشاركين امتيازات روحية ومادية غير مسبوقة ، وبذلك فقد طور مفهوم الحرب المقدسة من حرب لرعاية مصالح الكنيسة إلى حرب دينية ، يتم خوضها من أجل الرب وليس لأى سبب آخر، وصارت لها اجراءاتها وطقوسها الدينية .

وعلى كل من يرغب فى المشاركة أن يقطع عهدا ويقدم نذرا بالمشاركة فى رحلة الحج المسلح إلى بيت المقدس ، ويتم أداء هذا النذر بحضور البابا أو من يكون نائبا عنه من رجال الدين . وبعد تقديم النذر يتم الحصول على شارة الصليب ، وهذا يعنى الانضمام الرسمى إلى الحملة . وعندما يستكمل الحاج المقاتل استعداداته يتقدم إلى رجل الدين المختص فى دائرته للاستئذان فى الخروج وبدء الرحلة ، ويتم ذلك وفق طقوس معينة ، فيدلى الحاج المقاتل

(١) Stouraitis, Just War and Holy War, pp. ٢٣٤, ٢٣٥.

(٢) Flory, Ideology and Motivations, p. ١٥.

(٣) Flory, Ideology and Motivations, p. ١٧.

(٤) Gilchrist, The Papacy and War, p. ١٨٩.

(٥) Brundage, Holy War and Medieval Lawyers, p. ١٠٦; Tyerman, Were There Any Crusades, p. ٥٥٤; Charanis, Amis of the Medieval Crusades, p. ١٢٤; Gilchrist, The Papacy and War, p. ١٧٦.



باعترافاته، ويحصل من الكاهن على وعد بالغفران ويتسلم منه رموز الحج التقليدية المتمثلة في الجعبة والعكاز.

وتبدو عبقرية البابا أوربان في أنه قام بدمج شعيرة الحج والثواب المتعلق بها مع الحرب المقدسة التي تقدم العفو والغفران مع تقاليد الفروسية التي يعتز بها مقاتلو العصور الوسطى مع الطقوس والإجراءات التي يتم بها الانضمام للمشاركة في الحرب والامتيازات التي تمنحها الكنيسة، فتحولت الحرب إلى مؤسسة دينية تعمل في خدمة البابوية، واتخذت من الصليب شعاراً. فهل هناك وسيلة للتعبير عن الحرب الدينية المسيحية أفضل من الصليب الذي يشكل جزءاً من العقيدة والعبادة المسيحية، مما أدى إلى ارتباط هذه الحرب الدينية بالصليب وصارت تعرف باسم الحروب الصليبية.

ونظراً لإيجابية هذا المصطلح وشموله ودقه تعبيره عن الحرب بأنها حرب صليبية، لم يستطع المعارضون لذلك أن يجدوا له مصطلحاً بديلاً. ومن ثم فإن الحرب الصليبية هي حرب دينية فريدة من نوعها، لأنه لا يتم الدعوة لها إلا من البابا وحده، وتشمل أهدافاً دينية واضحة، ويتم المشاركة فيها وفقاً لطقوس دينية محددة، ويتم منح الغفران للمشاركين، والحياة الأبدية لمن يموتون أثناء الرحلة، ومنح المشاركين الكثير من الامتيازات القانونية والاجتماعية، وهي أمور كلها لم تحدث قبل الحروب الصليبية أو بعدها.

قائمة المختصرات

AHR	American Historical Review.
CHH	Church History.
CMWC	Crusades Medieval worlds in conflict, edited by, Thomas F.Madden,James L.Naus,Vicent Ryan,(Routledge,٢٠١٦).
CRE	Crusading on the Edge: Ideas and Practice of Crusading in Iberia and Baltic Region١١٠٠-١٥٠٠, edited by Torben KJersgaard Nielsen,and Iben Fonnesberg, (Belgium, ٢٠١٦).
CREU	Cutting the Gordian Knot,Crusading Europe, edited by G.E.M Lippiatt and Jesslynn L.Bird, (Belgium, ٢٠١٩).
CRUS	The Crusades, an Encyclopedia, Vol.١ ,edited by Alan V.Murray, (Oxford, ٢٠٠٦).



CRW	The Crusader world, edited by Aderian J.Boas, (New York, ٢١١٦).
EHR	The English Historical Review.
FCJER	From Clermont to Jerusalem, edited by Alan V. Murray, (Brepols, ١٩٩٨).
HOW	The Holy War, edited by Thomas Patric Murphy, (U.S.A, ١٩٧٤).
IHR	The International History Review.
JGO	Jerusalem the Golden, The Origins and Impact of the First Crusade, edited by Susan B. Edgington and Luis Garcia Guijarro, (Brepol, ٢٠١٤).
JOB	Jahrbuch der Ostereicen Byzantinistik.
MSQ	Al Masaq.
NBF	New Black Friars.
NCE	New Catholic Encyclopedia, Second Edition, (٢٠٠٣).
OHC	The Oxford History of the Crusades, edited by Jonathan Riley – Smith, (Oxford, ١٩٩٩).
PAC	Palgrave Advances in the Crusades, edited by Helen J.Nicholson (Macmillan, ٢٠٠٥).
SPEC	Speculum.

المصادر والمراجع العربية

- أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس
العربية السعودية ، ١٩٥٨).
- أنا كومنين
الكسياد ، ترجمة حسن حبشى (القاهرة ، ٢٠٠٤).
- بالار
ميشيل، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن الحادى عشر إلى القرن الرابع عشر ، ترجمة بشير السباعى، (القاهرة، ٢٠٠٢).
- توديبود
بطرس ، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس ، ترجمة حسين محمد عطية، (الاسكندرية ، ١٩٩٩).
- براور
يوشع، الاستيطان الصليبي في فلسطين ، مملكة بيت المقدس، ترجمة عبدالحافظ البنا (القاهرة ، ٢٠٠١).
- رايلى سميث
جوناثان، ماهى الحروب الصليبية ، ترجمة محمد فتحى الشاعر، (القاهرة ، ١٩٩١).
- ريلى سميث
جوناثان ، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة محمد فتحى الشاعر ، (القاهرة ، ١٩٩٣).
- ريمونداجيل
تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ، نقله إلى العربية حسين محمد عطية،(الاسكندرية ، ١٩٨٩).
- رنسمان
ستيفن ، الحملات الصليبية ، من كليرمونت إلى أورشليم ، ج ١، ترجمة نور الدين خليل ، (القاهرة ، ١٩٩٤).

- سعيد عبدالفتاح عاشور الحركة الصليبية ، الجزء الأول (القاهرة ، ٢٠١٠).
- عزيز سوريال عطية الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة فيليب صابر يوسف ، (دار الثقافة).
- عصام مصطفى عقله ، يوسف احمد بنى ياسين " تاريخ الجهاد للسلمى (ت ٥٠٠هـ/١١٠٦م) دراسة فى مصادرہ ومنهجه ورؤيته للصراع الاسلامى الفرنجى الصليبي" ، دراسات العلوم الانسانية والاجتماعية ، المجلد ٤١، العدد ٣، (٢٠١٤) ص٩٢٩-٩٤٥.
- فلورى جان ، الحرب المقدسة ، الجهاد ، الحرب الصليبية ، العنف والدين فى المسيحية والاسلام ، ترجمة غسان مايسو(الدار العربية للتحديث الفكرى ، ٢٠٠٤).
- فوشية الشارترى تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، (الكويت، ١٩٩٣).
- قاسم عبده قاسم الحملة الصليبية الأولى ، نصوص ووثائق (القاهرة ، ٢٠٠١).
- قاسم عبده قاسم الخلفية الايديولوجية للحروب الصليبية، دراسة عن الحملة الأولى ١٠٩٥-١٠٩٩ (القاهرة ، ١٩٩٩).
- قاسم عبده قاسم ماهية الحروب الصليبية (عالم المعرفة ، ١٩٩٠).
- ماستناك توماش ، السلام الصليبي ، ترجمة بشير السباعى ، (القاهرة ٢٠٠٩).
- ماير هانس ابرهارد ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة عماد الدين غانم،(مجمع الفاتح للجامعات ، ١٩٩٠).
- وليم الصورى الحروب الصليبية ، ج ١ ، ترجمة حسن حبشى ، (القاهرة، ١٩٩١).

المصادر والمراجع الأجنبية

- Albert of Aachen, Historia Ierosolimitana, History of the Journey to Jerusalem, edited and translated by, Susan B.Edgingtom, (Oxford, ٢٠٠٧).
- Anna Comnena The Alexiad, translated by Elizabeth A.S.Dawes (Cambridge, ٢٠٠٠).



- Bird, Jessalynn., " Indulgences and Penance ", CRUS, pp. ٦٣٣-٦٣٧.
- Bronstein, Judith, " ١٠٩٦ and the Jews" JGO, pp .١١٧-١٣١.
- Brundage, James.A., " Holy War and Medieval Lawyers", HOW, pp. ٩٩-١٤٠.
- Bysted, Ane L., The Crusade Indulgence Spiritual Rewards and the theology of the Crusade, ١٠٩٥-١٢١٦, (Boston, ٢٠١٤).
- Callaghan, Joseph F.O., Reconquest and Crusade in Medieval Spain, (Pennsylvania, ٢٠٠٣).
- Charanis, Peter, " Amis of the Medieval Crusades and How They Were viewed by Byzantium" CHH, Vol. ٢١, No. ٢ (Jun., ١٩٥٢) pp. ١٢٣-١٣٤.
- Chevdden, Paul E." Pope Urban II and Ideology of the Crusades", CRW, pp. ٧-٥٣.
- Chevedden, Paul E." A Crusade from the First", The Norman Conquest of Islamic Sicily, ١٠٦٠-١٠٩١, Msq, Vol. ٢٢, No. ٢, (August, ٢٠١٠). pp. ١٩١-٢٢٥.
- Constable, Giles, Crusaders and Crusading in the Twelfth Century (New York, ٢٠١٦).
- Cowdrey, H.E.J., "New Dimensions of Reform. War as path to Salvation" JGO, pp. ١١-٢٤.
- Cowdrey, H.E.J., " The Genesis of the Crusades" The springs of Western Ideas of Holy War, HOW, pp. ٩-٣٢.
- The Deeds of the Franks, The Deeds of the Franks and Other Jerusalem Bound Pilgrims. edited and translated by Nirmal Dass, (United Kingdom, ٢٠١١).
- Draper, " The Origins of the Just War Tradition", NBF,



Vol. ٤٦, No. ٥٣٣, (November ١٩٦٤), pp. ٨٢-٨٨.

- Evans, Michael R., " Commutation of Crusade vow", FCJER, pp. ٢١٩-٢٢٨.
- Flori, Jean, "Ideology and Motivations in the First Crusade" PAC, pp. ١٥-٣٦.
- France, John, The Crusades and the Expansion of Catholic Christendon ١٠٠٠-١٧١٤, (New york, ٢٠٠٦).
- France John, " Urban II and the Impact of the council of Clermont" CREU, pp. ٧٣-٤١.
- Gilchrist, John, " The Papacy and War against the Saracens, ٧٩٥-١٢١٦" , IHR, Vol. ١٠, No. ٢, (May ١٩٨٨) pp. ١٧٤-١٩٧.
- Grossman, Ronald P, The Financing of the Crusades, PHD, (The University of Chicago, ١٩٦٥).
- Heath, Sidney, Pilgrim Life in the Middle Ages, (London, ١٩١١).
- La Barge King, Matthew, A Translation, Commentary, and Essay Concerning the Hierosolymita by Ekkehard of Aura. PHD, (University of Washington, ٢٠١١).
- Lloyd, Simon., "The Crusading Movement" OHC, pp. ٣٥-٦٧.
- Louis and Jonathan, Riley- Smith, The Crusades Idea and Reality, ١٠٩٥-١٢٧٤, (London, ١٩٨١).
- Maier, C., "Crusades", NCE, Vol. ٤, pp. ٤٠٥-٤١٥.
- Meinbery C. "Cross", NCE, Vol. ٤, pp. ٣٧٨-٣٨٣.
- Mulinder, Alec C., The Crusade of ١١٠١ with Particular



- Reference to military History, PHD,(University of Wales, ١٩٩٦).
- Munro, Dana Carleton., " The Speech of Pope Urban II at Clermant, ١٠٩٥" , AHR,Vol.١١, No.٢ (Jan.١٩٠٦) pp.٢٣١-٢٤٢.
- Naill Christie and Debarah Gerish " Paralled Preachings. Urban II and al-Sulami,"MSQ, Vol.١٥, No.٢, (September٢٠٠٣), pp. ١٣٩-١٤٨.
- Odo of Deuil, The Journey of Louis VII to the East, translated by Virgina Gingerick Berry. (U.S.A.١٩٤٨).
- O'Driscoll, C.D., The Just War Tradition and systemic change: The Rights Revolution and International Society, MA (Dalhousie University, August, ٢٠٠٢).
- Palmer, P.F., and A.Tavard, " Indulgences" NCE,Vol.٧, pp. ٤٣٦-٤٤١.
- Paul, Nicholas L. " The Fruits of Penitence and the laurel of the Cross", CRE, pp. ٢٤٥-٢٧٤.
- Peters, Edward, editor, The First Crusade, The chronicle of Fucher of Charres and other Materials, (The University of Pennsylvania Press, ١٩٧١).
- Phillips, Gonathan, The Crusades ١٠٩٥-١١٩٧, (Longman, ٢٠٠٢).
- Phillips, Christopher Matthew, O Magnum Crucis Misterium: Devotion to the Cross and the Imitationof the Crucified Christ in the High Middle Ages C.١٠٥٠-C,١٢١٥, PHD (Saint Louis University, ٢٠٠٦).



- Phillips, C.Matthew " Crucified with Christ: The Imitation of the Crucified Christ and Crusading Spiritually," CMWC, pp.٢٥-٣٣.
- Price, Jennifer Ann, Cruce signatus: The form and Substance of the Crusading Vow,١٠٩٥-١٢١٦, PHD, (University of Washington,٢٠٠٥).
- Proges, Waller," The Clergy, the poor, and the Nun-Combatant on the First Crusade ", SPEC, Vol. ٢١,N.١, (Jan,١٩٤٦).
- Ralph of Caen, The Gesta Tancredi, A History of the Normans of the First Crusade,translated, Bernard S.Bachrach and David S.Bachrach, (Ashgate Publishing,٢٠٠٥).
- Riley –Smith, Jonathan, " The Crusading Movement and Historians, OHC, pp. ١-١٤.
- Riley –Smith, Jonathan, The State of Mind of Crusaders, OHC, pp.٦٨-٨٩.
- Riley –Smith, Jonathan, " An Army on Pilgrimage, JGO, pp. ١٠٣-١١٦.
- Riley –Smith, Jonathan, The First Crusaders ١٠٩٥-١١٣١. (Cambridge, ٢٠٠٠).
- Robert The Monk, The Historia Iherosolimitana ed, D. Kempf and M.G.Bull (The Boydell Press,٢٠١٣).
- Slack, Corliss K., Historical Dictionary of the Crusades, (Oxford,٢٠٠٣).
- Someville, Robert, " The Crusade in the Councils of Urban II beyond Clermont" JGO, pp. ٨٩-١٠٠.
- Spornick, Charles D.G., The Life and Reign of Pope Eugene III (١١٤٥-١١٥٣), PHD, (University of Notre Dame, April, ١٩٨٨).



- Stouraitis, Ioannis, "Just War and Holy War in the Middle Ages", JOB, Band ٦٢ (٢٠١٢) pp. ٢٢٧-٢٦٤.
- Tyerman, C.J., "Were There Any Crusades in the Twelfth Century" HER, Vol. ١١٠, No. ٤٣٧, (Jun, ١٩٩٥), pp, ٥٥٣-٥٧٧.
- Tyerman, Christopher, God's War, A. New History of the Crusades, (Penguin Books, ٢٠٠٧).
- Tyerman, Christopher, Fighting for Christendom; Holy War and the Crusades, (Oxford, ٢٠٠٤).
- Van Neste, Berit, Cicero and St. Augustine's just War Theory, MA (University of south Florida, ٢٠٠٦).